الفكر الشرقي القديم

دراسات نقدية

الدكتور
إبراهيم إبراهيم محمد ياسين
أستاذ ورئيس قسم الفلسفه
بكلية الآداب - جامعة المنصورة

الفكر الشرقى القديم

تصدير

إن مادة الفكر الشرقى القديم هو من بين المواد المستحدثة فى أقسام الدراسات الفلسفية فى مصر.

وقد ظلت لوائح أقسام تخلو من هذه المادة لسنوات شأنها شأن العديد من المواد التى أهملت لصالح مواد أخرى.

وإذا كنت اليوم أقدم هذه الدراسة فى مستهل بدأ الدراسة فى قسم الفلسفة فى جامعة المنصورة فإن الحاجة ماسة للغوص فى أعماق الفلسفة الشرقية، وكذلك أجد من المهم الاقتراب من مواقف فلسفية معينة تكون وسيلة لاستيعاب الأفكار التى كان من نتائجها هذا التراث الانسانى والدينى الذى شكل عقلية الانسان فى نصف الكرة الشرقى.

وذلك على أساس الفرض القائل أن الغرب حاول باستمرار أن يفرض مفاهيمه على الشرق، بل لعل الشرق أصبح يتلقى مفاهيم مثل الديموقراطية، والحرية، والدكتاتورية، ومفاهيم أخرى نابعة من الفسفات المادية والإلحادية، والشكية، من الغرب فى الوقت الذى يغفل فيه العامة عن أسئلة هامة بالحياة وبالكون الذى يحيا فيه الانسان؟

كذلك قد تتباين أشكال من الإجابات على هذه الأسئلة فى الشرق والغرب إلا أنه من الهم أن ندرك أن هذه الأسئلة ليست حكراً على الغرب دون الشرق، إن مثل هذه المواقف تثور فى كل مكان يحكم طبيعة المشكلات البشرية المشتركة بين الناس جميعا وإن كنا لا نعرف الكثير عن معرفتنا بذواتنا.

وقد لاحظنا أن هناك تباين فى فهم هذه المشكلات بين الغرب والشرق وهو على وهو اليقين إختلاف فى الدرجة.

فبينما يميل الشرقيون إلى تجنب تجزئة إلى تجنب تجزئة وعزل الحياة والمعرفة مما لا يعطى فرصة للفصل بين ميادين الفلسفة المختلفة فليس هناك تمييز قاطع بين الفلسفة الشرقية والديانة الشرقية، أؤ بين الفلسفة وعلم النفس، أو بين الفلسفة والعلم. لذلك ينظر إلى الفلسفة فى الشرق لا باعتبارها بناء مجردا يتسم بالطابع المدرسى والأكاديمى، وإنما هى مشروع متعلق بالحياة اليومية.

ويبدو السؤال الأساسى فى الفلسفة الصينية فى أعمال «كونفوشيوس» وكذلك فى الفلسفة الهندية فى «البوذية» هو كيف يمكن للانسان تحقيق التناغم مع الانسانية بأسرها؟ وكيف يمكن له تحقيق التناغم مع الطبيعة؟ وكذلك كيف يحقق توازنه الروحى؟

وتبقى مشكلة تحقيق الانسجام والتناغم مع الطبيعة هى مشكلة تناغم المرء مع نفسه والتى هى أساس التناغم مع الآخرين.

وتشتهر الهند بالاحترام الكبير الذى تكنه لمن ينشد الحكمة. وتتخذ الحكمة العلمية المتراكمة فى الهند شكل ترويض النفس (اليوجا) الذى يهدف إلى تحقيق التكامل المطلق للحياة، ولكن يتم هذا الترويض، فانه يتم توجيهه عبر نشاطات العباده والتفانى، ونشاطات العمل، والمعرفة، والتركيز، وردوت ترويض النفس.

كذلك ركزت فلسفة مثل البوذية على مقاومة الشهوات الحسية واعتبارها العدو اللدود للانسان، ولذلك رفضت المبالغة فى الانغماس فى الشهوات، وظهرت حالة الاستنارة أو الحكمة السامية التى يدعو إليها جوتاما أو (بوذا) بحثا عن حقيقة الألم وسببه، وقد حددت هذا السبب فى الاقبال على الحسيات والتعلق بالحياة والخوف من الموت، كذلك بحثت هذه الفلسفة عن وسائل إنهاء الألم والتحرر من الرغبات التى الحقائق الثلاث الأولى، مؤلفا من ثمان شعب تقوم على الآراء السليمة، والقصد السليم والكلام السليم، والعمل السليم، والحياة السليمة، والكجهود السليم والتعقل السليم، والتركيز السليم.

وتعتمد الأخلاق العملية فى المذهب البوذى على تمرين الأفراد على هذه الحقائق وصولا إلى حالة النرفانا أو انتهاء الرغبة فى المتعة والوصول على حالة التوازن الروحى.

وإذا كانت البوذية الأولى قد أنكرت وجود الله كخالق للكون فإن ذلك يرجع إلى إعتقادها أن الآلهة الشعبية أقوى من الانسان العادى إلا أنها لم تخلق العالم، وإن كانت هذه الآلهة جزء من عملية التناسخ الطيب أو التناسخ الشرير، الذى يكون نتيجة لنوع العمل الذى قام به الانسان فى حياته، لذلك يكون الثواب أو العقاب نتيجة مباشرة للأسباب التى تؤدى اليه وليس عملية قدرية.

والفرد عند البوذية مكون من مجموعات خمس من العناصر، وهى المادة والإحساس والادراك والعناصر العقلية والشعور مع عدم وجود النفس أو الروح وحيث تؤمن البوذية بأنه لا نفس.

والحقيقة الوحيدة الثابته عند البوذية هى النرفانا وهى كلمة تهدف إلى الخروج من حالة عدم التوازن الناتة عن نار الغضب والرغبة والشهوات إلى الهدوء النفسى والعقلى بعد أن يكون الانسان قد قطع الطريق وصلا إلى المعبود.

وفى الهند أيضا وصل فلاسفة الأوبانيشاد فى متابعتهم لطبيعة الذات وطبيعة الواقع المطلق إلى إدراك أننا متحدون مع الطبيعة المطلقة للواقع، وأن ذوواتنا الداخلية هى جزء من هذا الواقع الطبيعى، وكانت المشكلة هى كيفية إدراك هذه الذات الداخلية، ومن ثم كان البحث فى جوهر الذات الداخلية بعد بحثا فى جوهر الكون لأنهما متحدان. وكانت محاولات الإجابة عن حقيقة الذات الداخلية سببا فى التطورات التى لحقت بالبوذية، وظهور «اليوجا» والدين وبقاء صرح فلسفات أخلاقية وإجتماعية تمحورت حول المشكلات النظرية التى نشأت عن اكتشاف صعوبة ربط تعددية الواقع وتكثره بالنظره التى إعتنقها الاتجاه الأوبانيشادى والمتعلقة بوحدة الوجود.

والأوبنيشاد Upanisads الرئيسية لها العديد من الفروع التى ذكرها ماكس مولر Max Muller فى كتابه المعروف المعنون The upanisads فى الجزء الثانى منه وهى على النحو التالى:

١- خاندوجيا أوبانيشاد Khandogya

٢- التالافاكارا أو الكينا أوبانيشاد Talavakara Or Kena

٣- أيتاريا أو بانيشاد Aitrareya

٤- الكوشتاكى أوبانيشاد Kaushitaki

٥- ڤاجاسانبى أو الايزا Vagasanepi or Isa

٦- الكاثا أوبانيشاد Katha

٧- المونداكا أوبانيشاد Mundaka

٨- تياترياكا أوبانيشاد Taittriyaka

٩- البريهادا رانياكا أوبانيشاد Brihadaranyaka

١٠- سفيتا سفاتارا أوبانيشاد Svetasvarara

١١- براسنا أوبانيشاد Prasna

وهذه الفرووع الاحدى عشر للأوبانيشاد تسمى أحيانا بالأوبنيشاد القديمة، بالرغم من أن (مولر) يميل إلى أن يطلق عليها إسم الأوبنيشاد الكلاسيكية أو الأساسية فى فلسفة الفيدانتا Vadanta. (١)

والواقع أن تعاليم (جوتاماسدهاهارت) أو (بوذات) قد إنتشرت إنتشارا عظيما فى آسيا وسادات الحكمة البوذية باعتبارها حلال لكل ضروب المعاناة التى تحفل بها

(1) Max Muller, The upanisads, Part II, New York, P. Intraduction.

الحياة، ويبدأ أن البوذية تجعل من هذه المشكلة محورا للتعاليم البوذية. فالتغلب على المعاناة النفسية والجسدية، وكيفية إيجاد حياة تخلو من المعاناة، وطبيعة العالم الذى يشكل مصدرا للمعاناة هى الأمور التى تشغل البوذى، وهى من المبادئ الأساسية التى تؤدى إلى نظرية عامة عن السلبية تشكل نظريات الذات والواقع التى تتمثل فيها الميتافيزيقا البوذية.

وقد حفظت المؤلفات الدينية المقدسة للبوذية باللغة السنسكريتيه فى الشمال، وبلغة (بالى) فى الجنوب.

وتحمل مجموعة الكتب المقدسة للبوذية اسم (تريتكا) أى السلال الثلاث، لأنها تتكون من مجموعات ثلاث، المجموعة الأولى وهى (النظام أو فينايا) والمجموعة الثانية (مواعظ بوذا أوسوترا) وتحتوى على عرض للمبادئ والتعاليم والعقائد البوذية بشكل عام، وأما المجموعة الثالثة فهى (العلوم النظرية للنظام- ابيدارما)، ولا توجد من هذه المجموعات نسخة واحدة مكتوبة فى لغتها الأصلية، وإنما توجد باللغة الباليه والسنسكريتيه، وسوف نواصل البحث عن التعاليم البوذيه فى ترجمتنا لكتاب كرسماس همفرى المعروف Exploring Duddism والذى كنا قد بدأنا فى ترجمته منذ عام ١٩٩٠م، ونشر أحد أجزائه فى كتاب لنا بعنوان «المدخل إلى الفلسفة والنحل الروحية» وقد آن الأوان أن نستكمل هذه الترجمة بحثا عن هذه الحكمة البوذية التى تشكل وجدان وعقيدة مئات الملايين من البشر فى آسيا بحثا عن أسرارها الخفية، وقوة الجذب الخطيرة فيها.

المؤلف
المترجم الأستاذ الدكتور
إبراهيم ياسين

كريسماس همفرى

إستكشاف البوذيه

ترجمة ودراسة

الأستاذ الدكتور
إبراهيم إبراهيم ياسين
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة

إستكشاف البوذيه

كريسماس همفرى

مقدمة:

أصبح حقل البوذية واسعا جدا بمرور القرون لدرجة أنك لا تستطيع أن تكتب عنها بشكل كلى. ولقد حاول قليلون حقا أن يفعلوا ذلك، كما جاءت الكتب التى تحتوى على كل مدارسها وتساؤلاتها صغيرة حقا.

وبمرور الوقت أصبح للبوذية معنيين مختلفين تماما :

١) المعنى الذى اختاره علماء البوذية، كذلك المتعلمون من الرجال والنساء الذين اختاروا ركنا ما من حقل البوذية وأضافوا إلى معرفتنا بهم. لقد دربوا على الكتابة بموضوعية، وهو ما يسمح للقليلون أن يكونوا بوذيون بالمعنى الثانى للكلمة.

٢) المعنى الذى اختاره الطلاب الذين يحاولون أن يحصلوا على تأكيدات للنظرية، وذلك بالغوص فى عقولهم، وكذلك بتطبيق المبادئ التى تم اختبارها فى حياتهم الخاصة، لأنه من أجل الرغبة فى مصطلح أفضل يستطيع الباحث أن يسميهم تطبيقيون.

لكنه لا يوجد شخص واحد يمكن أن يتعامل مع كل الحقل البوذى، لذلك يجب أن يكون هناك تُخصص، وتركيز على مساحة مختارة من هذا الحقل.

فالمرء على سبيل المثال يستطيع أن يتدرب على التعاليم الأساية لمدرسة الزرافادا Theravada وهى البوذية فى سيلان Celylon، وبورما Burma وتايلاند Thailand، بصفة عامة فهى مقبولة كأقدم مدرسة بوذية. أو أن الفرد

يستطيع أن يتدرب على تعاليم Zen المفتوحة على اليابان الغريبة.

أو أنه قد يحاول أن يجرب التمارين التى مازالت أصعب وهى تعاليم البوذية فى التبت Tibetan لكن أحدا لا يستطيع أن يختبر الثلاثة دفعة واحدة.

إن النظام المكثف والذى هو وسيلة تحقيق تجربة روحية يستدعى التخصص قبل أن تتطور النظرية إلى وعى حقيقى، وسواء كان الهدف هو موضوع من موضوعات البوذية اللانفس No self أو ما يسمى الخواء Void أو الكارما Karma أو Rebirth التناسخ، أو كمدرسة واسعة. فإن كل هذه الدراسات والطريقة الخاصة بها والتى تدرسها بعمق فى البوذية.

وبالنسبة لى (الكاتب) وخلال نصف قرن من البحث واستكشاف البوذية فقد كنت مقيدا بحياتى السابقة وتدريبى على هذه الفلسفة، وقد قمت بدراسة مكثفة على هذه النظرية والتدريبات على موضوعات مختارة فى هذا المجال.

وهنا سنعرض لبعض المقالات عن هذه الاستكشافات، وهذا ليس نصا من نصوص البوذية، ثم أن الكثير من مساحة الفكر البوذى نادرا ما تذكر هنا.

كذلك يوجد بعض التكرار فى ملامح الموضوعات المنتقاه فى هذا الكتاب وقد يظهر المنظر مرة تلو الآخر، وفى وصفنا لهذه المغامرات، فإن الباحث لابد أن يستدعى كل المخزون العقلى من الاقتباسات، والمعلومات، وما شابه ذلك وما يكون قد تكرر بشكل جيد.

ثم انه قد يبدو أن هناك تناقضا، ولعل هناك مساحة واسعة تجرى فيها صراعات الآراء بشدة، ويتم هذا من خلال الجو المتسامح للبوذية مقارنا- بصراحة- بما يجرى حولها من مناقشات متعصبة.

وهكذا، وعلى سبيل المثال: تكون نظرية Anatta من مدرسة الزرافادا Theravada كما تدرس فى أراء منها اليوم ويتحدث بعضها عن قلب البوذى، مختلفا اعما يذكر حوله من آراء غير حقيقية.

ومرة أخرى، فإن التنتراس Tantaras من التبت، هم بصفة أساسية بوذيون من منطقة التبت، أو هم كلية ليسوا بوذيون مستوردون من الهند. أو من البوذية الشينيه Shin B. الشائعة بصفة عامة فى اليابان. وهى أيضا تستمد بعض عناصرها من البوذية الزينية Zen Buddhism أو هى كثير من العناصر البوذية الروحية المتنوعة. والتى يجب إخراجها عن حدود هذا المصطلح.

لذلك فقد تختلف الآراء بشكل واسع وتتباين من حيث الهدف الشرعي منها، وكذلك فى قيمة التأمل، وكذلك فى حاجاتها إلى فرع من فروع البوذية كالزرافادا سنغا The ravada Singho فى الغرب، أو بالمقارنة بالعلاقة بالفسلفة البوذية مع الطبيعيات المعاصرة.

وبمعنى من المعانى إذن: ماذا يبقى فى هذا العمل أصيلا؟

وبمعنى آخر قد تصل هذه النظرية إلى قمة الخلافات الفكرية، إلا أن التجربة البوذية تجربة شخصية، وتعد جديدة بالنسبة للفرد فى كل وقت يصل فيه إلى اللحظة اللازمانية.

إن البوذى لا يعرف سلطة سوى سلطة الحدس Intuition، وكل خطوة فى الطريق يجب أن يقطع بواسطة السالك حتى تصبح المعرفة الشخصية باعتبارها حقيقة المعرفة هى السائدة.

إن استكشافاتى للبوذية قد تمر بمناطق سطحية، وقد يقول الواحد أنه بمرور ألفى سنة من الخبرة والوصف فإن الاتجاه يبدو جديدا مع ذلك.

وهذا قد يشتمل على أجزاء عن بوذية الأناتا Anaatta والكارماً Karma والتناسخ Rebirth، وكذلك التركيز Concentration، والتأمل Meditation. ومع ذلك، فإنه لا يوجد اثنين من المستكشفين يتخذان نفس المنحى فى معالجة الموضوعات البوذية، كما لا يسلكان نفس الطريق، كما لا يحققان بدقة نفس النوع من الفهم.

وفى موضوعات أخرى مثل تلك المتعلقة بالحكمة Wisdom التى تخرج على المجال وتذهب بعيدا لهى أدنى من أن تطأ، ومن السهل على الواحد أن يضل طريقه، بينما لو أن الدائرتين التركيزيتين فى البوذية التبتيه Tibeton كما جاء وصفها فى الجزء الثالث، قد تم وصفهما فى مكان أخر فإنى لم أقرا مثل هذا الوصف.

وهنا سوف نجد أنماط وحالات مختلفة للعقل وبعض الفقرات قد تم التقاطها من الفصول الخلفية للمجلات العلمية، وبعض الفصول قد تم انجازها من بين المقالات الجديدة أو التى لم تنته بعد.

وقد يكون بعضها فيه خدمة لكل الباحثين خارج نطاق المادية، وبعضها يمثل الحكمة المتراكمة عبر العصور، وهو ما يمثل أنبل هدف يمكن أن يجده العقل البشرى، وهو ما يمثل اللحظات التى لا تنتمى للحقيقة الخالصة Pure truth لأول مرة.

المؤلف

(١) أسس الفكر البوذى

يرى «كريسماس همفرى» أن حياة بوذا يجب أن ينظر إليها بموضوعية فالبعض قد لا يرغب أن يكون من أتباع رجل عظيم مهما كان عظيما. والآخرون قد يأخذون خط الاعتقاد أن التنوير البوذى هو الحقيقة الأساسية فى الفكر البوذى وهى الحقيقة التى لو تقبل تترك تعاليم بوذا مجرد فلسفة، وأبعد قليلا من هذا تبقى الخبرة الهائلة عند أفضل تصور لها مجرد انعكاس شاحب.

وعلى القراء أن يدركوا ماذا تكون البوذية بما لم يمكن أن تكون. إن البوذية لا يمكن أن تكون ديانة الهند كما يعتقد بعض العامة، إن بوذا لم يكن إلها وإنما كان مرشدا، إن الأصنام لم تعبد فى معابد البوذية، وإنما تبجل فقط صورة ذلك المعلم الروحى العظيم، إن البوذية لا يمكن أن تكون ديانة اليأس التى تريد أن تنسف النفس الكلية فى العدمية الجوفاء.

وفيما يتعلق بالسؤال القائل: ماذا تكون البوذية؟ نقول أنها واحدة من أحكم وأقدم مجالات الفكر الفلسفى والنفسى، والصوفى، والميتافيزيقى، والدينى، والفرائضى، والثقافى، والفنى كذلك.

وبالرغم من وصفها باعتبارها واحدة من ديانات العالم الخمس العظمى، فهى بمعنى من المعانى ليست ديانة على الإطلاق لأنها تفتقد مفهوم الله المقدس، الروح الخالدة المستندة إلى الله، وكذلك الرهبان الذين من واجبهم أن يساعدوا الله على إنفاذ هذه الأرواح. (١)

ومن الناحية التاريخية، تكون البوذية اليوم أسمح الديانات على الأرض بين مدارسها المختلفة وبنى الأفراد فى هذه المدارس فيما يتعلق بوجهة نظرها فى الديانات الأخرى». (٢)

---

(١) لاحظ أن المؤلف كريسماس همفرى مسيحى يعتقد بوظيفة للرهبان باعتبارهم واسطة وعامل مساعد لله، وهو أمر يرفضه الإسلام.

(٢) المؤلف Christmas Humphreys لم يقرأ عن الإسلام ولا يعرفه باعتباره أسمع الديانات السماوية، كما أننا لا نوافق على وصفق البوذية باعتبارها ديانة كبرى.

ويستطرد «همفرى» فى وصفه للبوذية قائلا أنه لم تكن هناك حرب بوذية على الإطلاق، كما أنه ليس هناك تحفظ تجاه الآراء البوذية الشخصية، وفى جامعة تالاندا Nalanda تلك الجامعة البوذية الشهيرة والتى استمرت سبعمائة عام كان هناك مائة محاضرة تسلم كل يوم بواسطة أعظم العقول تعرض على عشرة آلاف طالب، فانه ليس من بينها واحدة دوجماطيقية Doga-tic أى عقائدية تفتقر إلى الدليل.

وطبقا للمخوطات فإن قدراً كبيراً من التعقل، والتعليم قد أضيف بواسطة بوذا عن طريق ذلك النوع من التنوير الذى لا مثيل له. مع ذلك فقد اختار أن تعلم الجنس البشرى طريقته التى تبدأ من «المعاناة وحتى نهاية المعاناة» وهى الطريقة من طرائق الحياة التى تطأ كل لحظة فى اليوم تعد أكثر أهمية من أى نظرية أخرى، ومع ذلك عميقة ورقيقة ومهذبة.

يقول بوذا «أن منزل النفس هو النار التى تحترق بالكراهية والحقد والوهم وعندما تنطفأ هذه النار وتخمد سيكون هناك وقت كاف لمناقشة طبيعة «المطلق».

إن موقف البوذى تجاه الحياة هو الموقف الوسيط بين كل المتناقضات بما فى ذلك الآراء الموضوعية أو الذاتية. ولقد نصح بوذا أتباعه وحذرهم تقمص الحياة من أجل ذواتهم فيما يسمى اليوم «السلوك العلمى» وبصفة خاصة «العلامات الوجود الثلاث» ومن ناحية أخرى فقد علمهم أن هذه «الحقيقة» موجودة فى الداخل. ومثل هذه العناصر العقلية يجب اختبارها وتجربتها كوظائف لرجل واحد كلى.

إم بوذا لا يعرف مخلصا واحد Saviour ويقول عليك أن تصنع خلاصك، إن كل واحد يقطع الطريق بجهده، زن طول الرحلة يعتمد على المجهودات التى يبذلها عقل الفرد.

ويحدد بوذا ثلاث علامات: الحضور الكلى للتغير وهو موروث فى كل شكل دون استثناء، والعلامة الثانية الغيبة فى أى شكل بما فى ذلك الإنسان. نقصد غيبة عنصر الثبات الخالد أو عدم التغير أو غيبة المبدأ الذى غير «كلية» هذا الشكل عن أى شكل آخر.

ولو نظرنا إلى شخصية الإنسان على أنها روح، فهى ليست روح خالدة ولكنها تتغير كأى شيئ آخر فى كل لحظة.

والعلامة الوجودية الثالثة هى المعروفة بمصطلح Dukkha والتى عادة ما تترجم «المعاناة» أو المرض العقلى أو اللاسعادة من كل نوع. وفى الحقائق السامية الأربعة التى أشار إليها «بوذا» يقدم لنا التواجد الكلى للمعاناة فى كل أشكال الحياة، ثم سبب هذه المعاناة التى اكتشف أنها رغبة النفس الراغبة أو الأنانية أو الرغبة المركزية فى النفس.

أن الرغبة فى حد ذاتها ليست شرا لأننا فى حاجة إليها من أجل الاستثارة، وتؤكد الحقيقة الثالثة أنه مع إزالة الرغبة الخاطئة تتوقف المعاناة والحقيقة الرابعة متمثلة فى الطريق البوذى أو ما يعرف بطريق التنوير البوذى السامى والذى يجب أن يطأه السالك حتى نهاية المعاناة.

بعد ذلك يجب أن يكون هناك فهم عميق للمبادئ الأساسية لتعاليم بوذا، ثم يأتى بعد ذلك حديث بوذا عن الأخلاقيات الحقيقية بما فى ذلك الدافع الصحيح، والحديث الصحيح، والفعل الصحيح وأسباب العيش الصحيحة فى المقدمة.

ثم أن المجهود الصحيح يجب أن يتطور ليصل بإرادة القوة بالمراحل النهائية. والخطوتين النهائيتين يشكلان نظاما كاملا للسيطرة على التطور العقلى، وعلى العقل حتى تقوده إلى حظيرة «النرفانا Nirvana والأول هو التركيز الصحيح الذى فيه

يكون العقل مدربا كأداه يمكن أن تركز بشدة على موضوع مختار ثم تطرد الرغبة.

إذ أن البوذية تري هذه الأدلة «العقل» عندما خلقت فإنها كانت من أجل أن تستخدم في التأمل و حتي يسكن النشاط العقلي و يتمدد إلى مداه ولكى تتطور قوة الحدس والفهم الخاص بإدراك «الحقيقة» التى تتعدى إمكانيات الفهم العقلى.

أن الوجود بعيد عن القانون، وكل المسببات لها أسباب، وشخصية ،الإنسان هى بعض من كل أفكاره وأفعاله السابقة، والكارما تعنى الفعل ورد الفعل الذى يحكم كل الوجود والإنسان هو المخلوق الفريد ونتاج ظروفه وخلقه لهذه الظروف وحالته المقبله وقدره النهائى، وبواسطة الفكر الصحيح فهو يستطيع بالتدريج أن يطهر طبيعته الداخلية ويحصل على الحرية من عجلة التناسخ وتشمل هذه العملية حقبة طويلة من الزمن مع الحياة وبعد الحياة، وهكذا ستصل كل وحدة من وحدات الحياة إلى التنوير.

إن بوذا هو الكل المستنير «الواحد» العاطفة الكلية، لأن الحكمة والعاطفة هما وجهين لعملة واحدة.

إن مدرسة البوذية الغربية تتحدث على سبيل النموذج عن Arhat التى تعنى الواحد الأمثل الذى يحول الجهود إلى إنجاز يحقق الحرية من خلال الوهم وتنظر المدرسة الشمالية إلى الـ Budhista ذلك الذى كبت حياته فى خدمة كل الأشياء الحية ويحظى نسبيا باهتمام قليل بحريته.

إن الحرية لا تقال إلا بعد أن يكرس نفسه لخدمة الكل، ان العاطفة تظل عمياء إذا لم تعتمد على ضوء الحكمة «النرفانا» سواء أطلقت عليها مصطلح «الايقاظ» أو «التنوير» لا يمكن أن توصف بصفة كاملة يمثل هذه الصفات. إنها نهاية الوهم، أنها الحقيقة المشاهدة وجها لوجه. ان كل معنى للنفس المنفصلة مفارق متسامى هنا، كما أن

الرغبة الشخصية من أى نوع تموت، ان قطرات الندى تنحدر فى ذلك البحر المتلألأ لكنها تسترد كل وعيها.

ان «النرفانا» تتحقق فى الجسد الطبيعى فى الأرض وفى النهاية فإن كل شيئ يدخل فى الحياة البوذية.

ولأن البوذية فى جوهرها «طرق» وليست نظرية فكل شيئ يجب أن يطبق فى الحياة اليومية حتى تذوب النظرية فى التجربة.

Search

I seek the One, the final One, but who
Am I that craves communion?
Am I but child of all that I have done
And yet shall do?

I seek, unknowing that I am the sought.
I search about me for the eyes which see.
My shouting will is clamorous to be free
Yet I am nought.

I shrink, and the pale stars grow lighter,
Fade, and a shadow dies upon the sun.
Desires die, dissolve, are gone;
The light grows brighter.

I rise, and earth rejoices at my spending,
Grow, and the stars are but a garment shed.
Illusion dies, and lust is dead.
The self has ending.

(٢) الموضوعات الرئيسية فى البوذية

إذا طرح هذا السؤال «ما هى البوذية»، سيكون الجواب أكثر تعقيدا كما كان السؤال صعب التناول، إذ لا يوجد بوذيان اتفقا على الجزم بتعريف محدد. إلا أنه ربما قد ظهر رأى ما بعد خمسين عاما من تناول الغرب للبوذية فاتحا بابا البحث للراغبين من أبنائه.

ولقد دعوت مائة وخمسين بوذيا من المقيمين فى لندن أو بالقرب منها لصياغة قائمة بآرائهم المتعددة التى اصطلحوا عليها تعرض لأبعاد ذلك الموضوع من وجهة نظر غربية. ولقد ضمنت تلك الاصطلاحات على هيئة بنود كالآتى. ولكن قبل كل شيئ لابد من الرشارة إلى ا استرعى انتباهى أن محتوى تلك المبادئ فى جملتها تنتسب إلى مدرسة (ثيرافادا) البوذية، لكن تلك الصفة ما كانت لتأخذ عليهم إذ أن هذه الآراء فى حقيقتها هى القواعد الأساسية لذلك الصرح الفكرى الشامخ من التفكير والتجربة المعروف بالبوذية. وإذا كانت مدرسة (الماهايانا) أعمق فى أفقهما إلا أنها تشبه فى تشعب معتقداتها وبواسطة العقول الباحثة المتأملة فى جميع الاتجاهات كالعجلة ذات الأوتار المتشعبة، لكن تلك الأوتار المشعة المتشعبة سرعان ما تتنافر اتجاهاتهما. إلا أن آراء تلك المدرستين المختلفتين تتبع من مركز (محور) واحد ألا وهو البوذية.

أولاً: على الباحث فى البوذية أن يعرض حياة البوذى أن مثل عرضه بسيطا موضوعياً وذلك لاختلاف أسبانى لأفراد تلك المذهب. إن بعض الراغبين فى اتباع ذلك المذهب: البوذا أن يكونوا أتباع رجل عظيم مهما بلغت درجة عظمته. وهناك البعض الآخر الذى يتخذ تجربة البوذا الروحية كأساس راسخ للبوذية، وإذا لم تتضح وتبدو كما يجدر بهما. نظروا إلى باقى التعاليم على أنها مجرد فلسفة بعيدة وقاصرة عن السمو إلى تلك التجربة الروحية ولكنهما انعكاس هزيل لها.

ثانياً: من المحبذ التفريق بين البوذية وبقية الأديان تفريقا واضحا وبسيطا، فالبوذية ليست ديانة للهند كما يعتقد العامة، وما كان البوذا إلاها، بل كان حكيما معلما، ولا تعبد الأصنام فى معابد البوذتين لكنهم يعبدون ويقدسون صورة المعلم الروحى الأعظم وليست البوذية، وهى أمل يهدف إلى فناء النفس فى فراغ سرمدى.

ثالثاً: أن البوذية واحدة من أكثر الاتجاهات الفكرية الموجودة اتساعا وهى تجسيد للفلسفة والتصوف والفيريقيات والدين والطقوس والثقافة والفن وعلوم النفس.

بالرغم من كون البوذية واحدة من أعظم خمس ديانات إلا أنها بما تحمله وتحتويه ليست دينا على الإطلاق، وذلك أنها تحتوى على صفة الإله القادر المسير ولا الروح الخالدة والمعتقدة على الله وهى الرسول والرهبان الذين من واجبهم مساعدة ربهم فى تخليص تلك الروح.

وإذا كان ذلك المجال متسع المآخذ والردود فعلينا أن نقتصر على الإشارة إلى أهداف البوذية الرئيسية.

رابعاً: أن البوذية هى أكثر الأديان سماحة على ظهر الأرض على نحوها يعتقد «كرسماس همفرى» سواء بين مدارسها المختلفة أو فى انطباعاتهم عن الأديان الأخرى، فلم نسمع فى يوم من الزيام عن حرب بوذية أو محاكمة لأحد الأفراد بسبب آرائه الفلسفية المتعصبة. إذ لم نجد فيما تواتر إلينا من أخبار عن أشهر جامعة بوذية (فلانادا) أن طلابها الذين كانوا يأخذون العلم على يد أعظم العقول، أثاروا فيما بينهم مناقشة عقائدية أو وجد فيما بينهم ذوى النيات الخبيثة إلى بث الفتنة بين الناس.

خامساً: لقد خاض البوذا، طبقا للمخطوطات، تجربة ذهنية وروحية عظيمة أضاف إليها تجربتهاالتنويرية الفذة إلا أنه اختار أن يعلم رسالته إلى البشرية على أنها منهاج وأسلوب «طريق» من المعاناة إلى ذروة المعاناة، وهذا الأسلوب أو الطريق- المطروق فى كل دقيقة- ذو أهمية أكثر من أى عقيدة كانت. لقد قال البوذا «أن منزل النفس هو النار على النار، ونارها أكره والنزوه والوهم». وعندما تنطفئ تلك النيران سيكون هناك متسع من الوقت لمناقشة طبيعة الكليات.

سادساً: إن المسار الذى يخططه البوذى لحياته مسار وسطى بين جميع الأضواء بما فيها موضوعية وجهات النظر أو عدمها، لقد حض البوذا أتباعه من ناحية على دراسة الحياة من وجهة نظر علمية مبنية على ثلاث محاور «علامات الخلق الثلاثة» ولقد أرشدهم كذلك إلى وجود الحقيقة فيها، إن هذه الخصائص الثلاثة كغيرها من خصائص العقل لابد من اعتبارها وظائف للإنسان الكل.

سابعاً: ليس للبوذية مخلصا، فلقد قال البوذا «أصنع خلاصك بنفسك» وأن يخطو كل إنسان طريق الخلاص بجهوده، وأن طول الرحلة يعتمد على مجهودات العقل الفردية.

ثامناً: لقد وضح البوذا علامات الخلق الثلاثة على النحو التالى:

أولهما: حضور واستمرار التغير كصفة أساسية فى كل شيئ دونما استثناء.

وثانيهما: استحالة وجود أى عنصر أو مبدأ خالد يميز أى مخلوق عن الآخر بما فيها الإنسان، وإذا وصفت شخصية الإنسان بأنها روح فهى روح غير خالدة ومتغيرة بتغير الزمان.

وثالثهما: تغلب المعاناة واليأس (دكاها) على الحياة بكل صفوفها ولقد بين البوذا فى حديثه عن المثل الأربعة بشيوع المعاناه فى كل نواحى الحياة، ولقد أرجع سببها إلى الرغبة بمعناها الشخصى الأنانى المتمركز لكن الرغبة كحافز للوصول إلى الحقيقة ليست شرا.

تاسعاً: ولقد أكدت الحقيقة الثالثة علي زوال معناة المنفس بزوال تلك الرغبة الأنانية الخبيثة، أما الحقيقة الرابعة في ذلك الطريق النبيل ذو الثماني مراحل الذى خطاه البوذا إلي ذروة العذاب و المعاناة .

عاشراً: ويبدأ ذلك الطريق بالتفهم العميق للمبادئ الأساسية لتعاليم البوذا. ثم يأتى وصف البوذية الأخلاقية الحقة بما تحتويه من واقع صحيح، حوار صحيح، فعل صحيح، وتعايش حق وصحيح مع الحدث.

كذلك لابد من تطور الهد الصحيح لكى يمد ويدفع الإرادة القوية إلى الخطوات النهائية.

حادى عشر: وتضم الخطوتان الأخريان نظام متكامل للتطوير وللسيطرة على العقل يؤدى إلى الوصول إلى مرتبة (النبرنافا) أى السعادة والنعيم المقيم الذى يتم بإدراك الحقيقة.

الخطوة الأولى: هى التركيز الصحيح الذى يقوم العقل فيه بدور الإله أو الأداه التى تسخر للتركيز على شيئ بعينه عند الحاجة إلى ذلك ولكنه من الجائز استخدام تلك الأداه عند حلقها فى التأمل، لتثبت نشاط العقل وتوسيع أفقه ولتطوير الإدراك الفطرى للحقيقة الواقعة بعيداً عن تصور التفكير لها.

ثانى عشر: الكون هو التعبير عن القانون، فكل الأثار لها أسباب، وشخصية الإنسان هى النتاج الكلى لأفكاره وأفعاله السابقة (فالكارما Karma) الفعل ورد الفعل.

تحكم الوجود، والإنسان هو المسئول الوحيد عن ظروفه و أفعاله وردود فعله تجاهها وعن حاله مستقبله و عن قدره الأخير. يستطيع الإنسن بواسطة التفكير و الفعل الصحيحين أن ينقي طبيعته الداخلية تدريجيا وأن يحصل علي التحرر من البعث بمرور الوقت. إن هذه الوسيلة تتطلب حقبا زمنية؛ متضمنة حياة بعد حياة علي الأرض ؛لكن خلال وحدة من وحدات هذه الحياة سوف تصل إلي الحقيقة بشكل نهائي .

ثالث عشر: كان البوذا هو الحكمة والرحمة بعينها؛ فالحكمة و الرحمة وجهان لعملة واحدة. إن المدرسة البوذية الجنوبية ترنوا بتقديسها تجاه (آرهات) (المستحق الأوحد) الذي حقق الحرية من الوهم بجهوده الذاتية .و المدرسة البوذية الشمالية ترنو بتقديسها تجاه (بودهيا) الذي وهب حياته لخدمة الكون متغاضبا عن تحرير نفسه ؛هذان المثالان متكاملان .إن الحكمة لا تكسب حتي تسخر في خدمة المجتمع ؛كذلك الرحمة عمياء حتي تستضئ بنور لحكمة .

رابع عشر: ان (النيرفانا) سواء كانت الصحوة أو الحقيقة لا يمكن الإفاضة فى وصفها إذ أنها نهاية الوهم؛ الحقيقة ترى رأى العين عندما تفني الرغيبة الشخصية بكل صورها و يتجاوز أى إحساس بذاتية النفس «وقطرة الذى تنحدر إلي العصر الساطع» لكنها تبقي علي إدراكها التام تحقق الحقيقة ماديا علي الأرض و عند النهاية «لكل ورقة عشب ستؤول إلى البوذية».

خامس عشر: بما أن البوذية في جوهرها أسلوب و منهاج (طريق)و ليست مجموعة عقائد إذن لابد من تطبيق كل هذه المبادئ في الحياة اليومية حتي تصير النظرية تطبيقا.

(٣) البوذية (العارف المتنور)
النفس واللانفس عند البوذية
Self and no self

إن الرأي الدائم لدى أعضاء مدرسة الزرفادا Theravda أن البوذية تبنى أساسا على حالة عدم وجود النفس فى الإنسان، أنه لا أثر لأى أنواع النفس، وهذا الفهم هو ما نأخذه من ترجمة كلمة Pali وهى Anatta وفى اللغة السنسكرتيه Atman No atman فإنه يمكننا القول بنفس الدرة أنه لا شيئ موجود سوى النفس كما تقول الهندوسية.

ومن الناحية النظرية البحتة فقد رفض بوذا أن ينحاز إلى رأى من الآراء، لقد فضل أن يصف طريقه، وطريقته فى الحياة ككل إنسان كى يمر بالمعانة من بدايتها إلى نهايتها.

وهو يبدأ هذا الطريق بالمبادئ الصحيحة والآراء الأساسية التى تعد قلب تعاليم «بوذا». وهذه المبادئ تتضمن ثلاث علامات من القدرة كالحقائق المؤكدة بواسطة أى إنسان، ان كل شيئ أو الكل هو حالة من التدفق أو السيلان الدائم، والتغير الدائم، أنه لا شيئ من مثل هذا له روح منفصلة أو روح خالدة أبدية lmmortal وأنه لا شيئ ينجو من المعاناة بشكل أو بأخر.

كما أنه يجب أن نلاحظ أن No Attman هى حالة من السلب تعنى أنه لا شيئ مهما كان يمتلك الروح atman التى تعد فى الفلسفة الهندية شعاع من الضياء المجرد وهو ما أسماه بوذا- اللامولود Unborn اللامنتشئ Unoriginated اللا متشكل Unformated. الروح فى الإنسان لها طريقة أخرى فى الوصف، ولكنها ليست أكثر انتماءا للإنسان من انتماء الشخص لأى شخص .

أو كما يقول الصينى الأستاذ هونج بو Huang Po ان كل البوذية وكل القوى الجسمية تعد لا شيئ إلا كونها عقل واحد One mind بالإضافة إلى أنه لا شيئ يوجد، لذلك فإنه أتمن Atman وحده أو منفردا لا يعد شيئا مركبا.

إن النور الكلى أو ما يسمى بمجموع النور، أو اللا مولود، أو بوذا العقل، وكل الأشياء مركبة الأشكال منه فى فيض وتجلى دائم وفى تغير طول الوقت ولذلك يجب أن نقرأ علامة القدرة على النحو التالى:

إنه لا يوجد فى الإنسان ولا فى الكون نفسه أي عنصر دائم أو خاصية يمكن أن تفصل هذا الإنسان عن الكل أو المجموع (اللامولود) كما يسميه الهندوس، لأنه من المفيد ألا يحمل اسما. وهذه هى الحالة السالبة ذات الإيجاب العظيم، أو هى السلب الإيجابى أو النفى المثبت للمجموع الكلى أو الكل المجموعى.

وهو الادعاء الخاطئ للأنا الشخصية التى تدعى استطاعتها أن تكون شيئا منفصلاً.

ولكن نظرية النفس كما يصفها بالى Bali ليست بأقل من إعادة اكتشاف ذات مغزى له الكثير من المعانى المتعلقة بحياتنا الروحية المتطورة، حقيقة أن القارئ يمكنه إعادة كتابة علامات القدرة هكذا:

ان كل شيئ يتغير طوال الوقت وليس له صدق دائم، وهذا يشمل الإنسان الذى لا يوجد فيه جزء أو مبدأ يعد خروجا على هذه القاعدة أو هذا الحكم.

ان رفض قبول هذه الحقيقة ينتج عنه بصفة طبيعية وبطريق الإحباط رغبة ملتوية وطموح شخصى ومساهمة فى معاناة العالم أنها ستكون مساهمة، فيما يعتقد هؤلاء

الراغبين وما يرغبونه من سماع ورؤية تؤكد أن الذات أو «الأنا» ليست وهما فقط وإنما فكرة غبية منتجة للألم.

وبالرغم من أن البوذى سنغا Sangha مازال يذكر أنه أثر للنفس فى الإنسان فإنه تظل هناك درجة من درجات النفس.

ودعنا ننظر إلى الموضوع من وجهتين للنظر:

أولاً: وبطريق عملية فإن علينا أن ننظر إلى أنفسنا من حيث أننا نعرفها مهما قالت عنها أية نظرية أو ديانة.

ثانياً: دعنا ننظر إلى ما يطرحه البوذى وما يقوله من أنه لا نفس لا نفس، على اعتبار أن هذا قول جدى وليس مجرد ترديد صياح ببغاء.

وبالنظر إلى أنفسنا فإننا نجد الجسد الفيزيقى مع شهواته الحيوانية كما نجد ما هو أعلى من ذلك وهو ما يتمثل فى الجسد الفيزيقى باعتباره مجالا للروح أو الروحانية. علاوة على ذلك فهناك العقل وما يمثله فى جانبه الأدنى الذى يتعلق بالعمل اليومى وما يمثله فى جانبه الأعلى ذو الموجات السامية والمبادئ المجسدة للفلسفة والعلوم وعلم النفس ... الخ.

وكل هذا يمكن معاناته والشعور به بإعتباره رغبة شخصية يجب أن ننميها وعاطفة يجب أن نعلمها كى نقبل أو ننقل إذا كان ذلك ممكنا.

وفوق العقل هناك قوة أخرى اعترف بها الغربيون وهى قوة الحدس Intuition ثم انه لو قدر لبحثنا أن يكون ذات معنى فعلينا أن نفهم أن الوجود وحقائق الأشياء هى مما لا يمكن وصفه.

ثم أن الإرادة أو الآلة التى تدفع العجلة إلى غايتها وبعيدا عن تحكمنا الشعورى هو ما يسمى باللاشعور Unconsicious أو اللاوعى عند مستوى متدنى فى علم النفس الغربى أو عند أعلى مستوى فى الميتافيزيقا الشرقية. إنه لا نفس حقا، وهنا تكمن الكينوية المعقدة ولكن ليست الخالدة فى أى من مبادئها أو فى كل مبادئها.

ثم ماذا يقول كتاب البوذية المقد Scriptures عن النفس؟

ولا، وكما أشرنا من قبل، لم يكن بوذا مهتما بدقة النظرية أو المناقشات فى المسائل الغامضة التى أثارها تلميذه الشهير Sariputta عما إذا كان بوذا فى سيبقى بعد الموت أم لا؟

والإجابة على السؤال الذى يسأل عما إذا كان العالم خالدا أم لا؟

إن المعاناة وارتفاع المعاناة وتوقف المعانة والطريق إلى وقف المعاناة هو وتم إعلانه فى كل المناسبات .

من هنا يجب أن ننظر إلى أقوال بوذا السالبة والموجبة لنتعلم ما علمه بوذا فى النفس.

لقدقال فى لغة اصطلاحية O Bhikkhus يوجد بوخس لا مولود، لا منتشئ، لا متشكل، انه لا مهرب من عالم الميلاد، عالم النشأة، عالم التشكل، لكن هذا مجرد تماما، إن اللا مولود يتجلى فى كل شيئ إلا أنه لا يمكن أن يكون مملوكا ملكية خاصة لأى شيئ .

لقد علم ولده Ruhla قائلا: سواء كان الشكل ماضيا أو مستقبلا، داخليا أو خارجيا، منخفضا أو عاليا، ساميا أو دانيا، فيجب النظر إليه على أنه ليس ملكى.

ولست أن هنا فى نفسى وهذا بالتأكيد يتضح فيما لا شيئ على الإطلاق شواء كان خاصية أو وصف، أو مبدأ يجعل النفس غير متغيرة.

إن الحديث عن النفس العليا ظل غامضا وعندما سأل واكجوتا Vacchogotta بوذا، عن النفس كان صمت المتنور الواحد، ولكن بوذا أفصح عن صمته عندما ذهب المتسائل بعيدا. فقد قال لتلميذه آتاندا Ananda «لو قلت أن النفس موجودة فإننى أنحاز إلى المخلدون Eternalists، وإذا قلت أنها غير موجودة فاننى أقترب من الفنانيون أو القائلين بالفناء annihilation ثم كرر قوله بالرغم من أنه من الكاف القول ان كل الأشياء غير دائمة، فإن كل نفس منفصلة أو حاسة يجب أن تذهب. ولقد تم تطوير هذا الاتجاه السلبى عند تلميذه ناجارجونا Nagajuna وأخرين فميا عرف بنظرية الخلاء Docctrine of Void أى كل شيئ خاوى أو فارغ فى الوجود كله.

ولقد تطورت هذه النظريات عند الماهياتا Mhayana إلى أقصى حد، وأصبح مبدأ (النفس واللانفس) متمثلا فى النفس الكلية عند الأوبنشاد Upanishads، ولقد نجحت الاوبنشاد فى التوحيد بين اللانفس عند البوذيين والنفس الكلية عند الهندوس وكلاهما أصبحا حقيقة فى نفس الوقت. ويبدو واضحا فى هذه العبارة:

كل الأشكال خواء ومع ذلك فالخواء ملاء

All forms is Void yet the void is utterly full.

"When on is two"(1)

النفس واحدة غير قابلة للقسمة، غير معروفة للألم أو الخسارة أو التباين غير مولودة من حيث الجوهر - غير متشكله.

لا ترى إنها خواء......

إنها كما يجب أن يفهم العقل البوذى تلك الأشكال، كل الأشكال. هى مصابيح الوهم ، هى ذلك، الإظلام. الفكر المولود من الحياة كى يموت.

يجب أن نعرف - من يعرف؟ العقل المتأمل؟

قد يعرف القلب أكثر.........

القليل الذى يتركب من الارادة قد فجر ينابيع الإختلاف الذى قد يعرف وعرف بحق، تلك الحياة اللامقسمه وفوق كل هذا طموح أيامهم.

وجراح الحب المفتوحه والمشاركه قد تكون كذلك. إننى لست من القليل. ومع ذلك فقد عُرفت فى لحظات لا زمانية عندما إستنار العقل بالقوة وأصبح حراً فجأة.

إن النفس واحدة غير قابلة للقسمة.

القلب يعرف أكثر من ذلك الذى ينغمس فى الظروف ويصمت فى الدوران السريع للزمن ويتذكر ذلك الحب السعيد، الأحمق

ثنائية لقد أحببنا الواحد المتجسد فى إثنين

إثنين من الحجيج على الطريق الاثنين كانا واحدا

يد فى يد مع ذلك فى واحد كانا اثنين فى طفل المايا،

---

1 - Exploring Quddnirm, p. 67.

(٤) الكارما Karma
تناسخ الروح Rebrith

إن حقيقة ما تثيره نظرية الكارما والتناسخ فى التفكير الغربى راجع إلى اهتمامهم بالفعل Acttion أن العقل الأوربى يقبل بسهولة الكارما يوجا Karma Yoga التى تعنى بالطريق العقلى إلى الفعل الصحيح. وهو الاتجاه المقبول بدرجة أعلى من Jnana Yoga والتى تعنى بفلسفة الطريق أو Bhakti التى تعنى طريق التضحية الصوفى كما يفهم من كلمة الكارما بصفة عامة.

وعند بالى Pali فإن كلمة Karama لها معان ثلاث:

١) الفعل.

٢) الفعل ورد الفعل كوحدة واحدة.

٣) القانون الطبيعى الذى يقرر أن الفعل ورد الفعل متساويان والعكس.

ومع كل هذا نتائج الفعل الناتجة عن سلسلة طويلة من الأفعال سواء كانت بواسطة الأفراد أو الجماعات. وبهذا المعنى يتحدث الإنسان عن رحلة تناسخية الخير أو الشريرة Good Karma Evil Karma التى خاضها الأفراد أو الأمم كفعل جمعى فى الأيام التى مضت.

إن قانون الفعل ورد الفعل معروف بصفة جيدة للعقلية الغربية، وهو تطبيق جيد للقانون الذى يمكن اختباره فى المعمل، وهل لا يجب أن يطبق؟

ولو أن الفعل ورد الفعل متساويان والعكس كما يعلن العلم فلماذا يقف العلم عازا أمام حدود المادة الطبيعية؟

إن الكارما ما قانون حى، إنه قانون سامى من قوانين الطبيعة، وكنتيجة لهذا

فإن كلمات من أمثل الصدفة، والحظ، والفرصة، والقدر، هى كلمات يجب ألا تستخدم. إن الإنسان لا يملك الحظ سواء كان جيدا أو سيئا ولا شيئ يحدث بالصدفة. إن الاتفاق هو ما يعنى وقوع الأحداث معا إما تابعة لعلة أو بالتأثير ومع ذلك يظل هذا التتابع غامضا جدا.

إن حدوث مقابلة مع صديق عائد من استراليا حديثا فى شارع لم ندخله كلانا من قبل يسوق إلى الأذهان مئات الاحتمالات الرياضية: هل كان هذا حدثا عارضا أو صدفة وإذا لم يكن كذلك، فهل تضافرت قوى الأرض والسماء منذ ألاف النين على أن تجعلنا نلتقى معا وجها لوجه؟ وماذا يكون الحظ غير حزام بلتف حول مصادفات أفعالى الماضية؟ وماذا يمكن أن يكون القدر إلا هذه التأثيرات التى يجب أن تحدث الآن؟

ولكن أى الاتجاهات العقلية أسمى؟ أن تكون الإرادة خيره ومع ذلك ندين القدر عندما تسير الأشياء على غير ما يرام؟

أم نقبل القول بأن الزشياء تحدث لأنها يجب أن تحدث وأن كل ما يحدث يحدث (حق) وأن كل الأشياء تقوم بالعمل على نحو جيد. ولو أن هذا الاتجاه صحيح فإن السبب وحده يكون ذات أهمية أولى وهذا يؤكد أن الفكر يتغير من معاناة التأثيرات إلى بهجة السبب الأسمى.

أن الكارما هى البديل القديم لفكرة التوحيد ..

ما هو القانون الذى يطبعة العالم أكثر واستخدامة على نطاق واسع ولزمن طويل؟ هل هو قانون آلى أعمى؟ أم أنه على قيد الحياة كما هو الحال فى العمليات العقلية والعاطفية وأجسادنا المتداخلة العلاقات والحية؟

إن الإجابة على هذا السؤال واضحة عند «بوذا» انه لا شيئ ميت وإن الوجود

كله كذلك. ولكن الخارج يبدو عقليا فقط. وان كل جزء من هذا يحدث وبأى اسم يسمى أو يوصف هو الواحد الذى لا يتجزأ، الحياة الواحدة، القانون الواحد، التنوير الواحد.

إن العلاقات المتداولة والمضطردة ينتج عنها العديد من التعقيدات الهائلة والتأثيرات، ومع ذلك فيمكننا أن نتصور العالم مع ماركوس آرلى Marcus Aureitus باعتباره كائن حى عضوى يتحكم فى مادة فردية، وروح فردة، ثم لاحظ كيف أن كل الأشياء تتفاعل مع حاسة العالم الفردية والكل يتصرف بنبض واحد، والكل يتعاون من أجل ذلك الذى يأتى ليمر، أن الحياة واحدة، والوقت هو الوهم المناسب Convenient illusion ويتبع هذا أن اضطراد العلة والمعلول هو أوسع من أن يكون مجرد تتابع للأحداث، ومع ذلك فنحن نجد العلاقة بينهما كتتباع واضحة بشدة.

وطالما كان حياتنا متقولة فى ذلك النور الخاص بالحياة الأزلية فنه لا يحدث أن تكون عقدة متتاهية الصغر فى النسيج الكونى المتشابك فقط. نحن نتناول العلة والمعلول، ثم العلة والمعلول الأبد فى علاقة الأشياء ببعضها وبنا وهو ما يجعلنا أقرب كثيرا إلى رغبات قلوبنا.

لذلك يمكن فهم التصوف إذا كان هذا هو التصوف على أساس أنه علم الوعى، إنه الملكة التى يرى بها النور.

لذلك فإذا كانت الكارما، هى قانون القوانين فإن الحب هو الذى يحقق القانون والشعور بالواحدية المطلقة للحياة باعتبارها الحلقة التى تربط بين الحب والقانون .

كذلك فمن السهل أن نرى الكارما كقانون للتوازن، إنها قانون القوانين، أنها الانسجام الأبدى، أنها الملائم لكل الأشياء وقانون الحب الأبدى. فلا أحد يمكنه أن يتخلص من الامه سواء كان فى السماء أو فى البحر أو فى الكهف ولا فى الجبل، لا

أحد يمكنه أن يهرب من خطاياه ومن العبث أن يحاول. وفى هذه الحياة فإننا نحصل على اللاشيئ من أجل لا شيئ، وكل ما نتسلمه هو ما كسبناه. وإذا كان لابد أن ندفع الدين فلاب أن ندفعه فورا وبسخاء. عليك أن تعطى دائما وبسرعة، عليك أن تعطى وننسى سواء كان ذلك بضائع أو مال أو وقت. إن هذه الأشياء ليست ملكك ولن تستطيع تملكها طويلا.

(٥) الهاوية والجبل

Precipice and Mountain

الطريق البوذى ذو الثمان مراحل eightfold path طويل وشاق، ولا يمكن اجتيازه كما يخبرنا بذلك كل الذين قاموا بهذه المحاولة بجدية، ومع ذلك فإن طريق كامل منذ بدايته هنا حتى نهايته المعروفة المعروفة بمصطلح Samadhi (قمة الطريق) ومن ثم فإن الطريق قصير نسبيا بالمقارنة بالنرفانا، أو «بالوعى الواعى» "The conscious awaremess" وبالمقارنة أيضا بحالة اللا انفصال واللا تمايز بين أى شيئين يمكن إدراكهما فكل الأشخاص الذين يسلكون هذا الطريق يمكنهم قياس مكان الآخرين بواسطة التجربة التى لا تكون شرا وهى اختبارات يجب أن نسمح بقدر من المساحة لنظرية التناسخ Rebirth، ان الطفل من الناحية الجسدية قد يكون كبيرا من ناحية الكمة، ولكن رجل كبير السن عظيم الشأن قد يكون طفلا من الناحية الروحية.

إن الطريق ينقسم إلى ثلاث أقسام أو مراحل بالرغم من أن كل خطوة تعالج فى قتها. وان الآراء الصحيحة تتضمن ما يبدو من خلال فهم مبادئ أساسية لما يعرف باسم dhamma (الداما) لدرجة أن هذه المبادئ تعمل بشكل منتظم فى العقل يوميا وتسبب ما يسمى بالفعل المتكافئ. وباختصار هل نعيش كما لو كنا نعتقد أن المبادئ الأربعة حقيقية وكما لو أن ما يسمى بالكارما Karma قوة تستخدم بطريقة صحيحة كل يوم.

إن المرحلة الثانية هى تلك المتمثلة فى حقل Sila الواسع أو ما يسمى بالأخلاقيات Morality وهو بمعنى تطور الشخصية الأخلاقية وهو الذى يعنى التوقف عن فعل الشر، وتعلم فعل الخير. ثم يجب أن يكون مكان الطريق البوذى واضحا وذو معنى. كما يجب أن لا نتحول إلى التحكم فى العق وكذلك إلى التطور العقلى. وفى

هذه الأثناء نحن نمشى وحدنا وكذلك نمشى معا.

فى كل مرحلة نقوم بما يسمى بالخلاص salvation ولكن دون مخلص saviour من أى نوع ماعدا هذا المعلم الذى يشير إلى الطريق معا بمعنى أن كل التمايز يكون نوع من الخيال الزائف.

وان كل الأشياء وكل الأشخاص هم متساوون فى صفة اللاميلاد unborn اللامتأصل unoriginated، واللا متشكل unformed أى أننا متساوون فيما لا وصف ولا تكرين ولا تشكيل.

والآن فهمنا البوذية بمعنى العمل التعليمى والتدريبى الذى ينبثق عن البوذية الغريبة هى فى نعالجة عملية الميلاد. وقد تكون مختلفة من حيث الشكل كما هو الحال فى عقيدة البوذية «الزرفادية» أو البوذية «التبتية» وقد تكون مختلفة من حيث الشكل سواء كان ذلك فى الزرفادية أو التبتية أو الزينيه التى تختلف بالفعل عن غيرها من المدارس، ولكن بالنسبة للعقل الغربى فإن الطريق البوذى المعروفة والشائع لدى كل المدارس الموجودة ولدى كل الاتجاهات يقدم تلك الصعوبات الغريبة الشاذة وهو يحتوى بصفة خاصة وفى مراحله المبكرة على تلك الهاوية أو ما يسمى self أو «الأنا» الذى يكافح من أجلها ذلك العقل الغربى بشدة فى شكل من أشكال الطموح والمنافسة، ولو كان الأمر يحتاج إلى حرب فيجب أن نذهب للهاوية لكى نموت فيما يسمى بانتحار الفضيلة، ثم يأتى بعد ذلك تلك الحاجة للتطور الكامل أو ما نسميه بملكة لا يمكن للعلم أن يتعرف عليها إلا بصعوبة شديدة.

ولا تعرف النفس البوذية ذلك الحدث المعروف لدى البوذية وتلك الملكة التى تولد فى الإنسان وتعرف بالحقيقة أو الصدق فى شكلها البسيط والتى تتميز عن

المعرفة. هذين فى تجربتى هما الخطين العظيمين فيما يعرف بتقدم طريق البوذية الغريبة وفى الشرق قد يكون الأمر شيئ آخر.

دعونا ننظر إلى المسافر فى هطا الطريق ذلك الذى يعانى أو ذاك الذى يبدأ فى اجتياز المشاكل أو العقبات فإنه فى الحال يواجه بالنفس كما يواجه بناحية من النواحى الخاصة بعقله هو. وكذلك وعيه أو شعوره الذى يراه يعمل بشكل نادر لمصالحه الخاصة أو لراحته الخاصة على حساب هؤلاء. الكل فى اتجاه الانفصال ولهذا السبب تنشأ المباعدة أو المباغضة، ولكن لو كان تلميذا عبقريا مثلا مؤهل لمواجهة الحقائق فإنه مع ذلك سيكون شعور غير سار عندما يشاهد أن حقيقة ما يسمى بالأنكا Anicca هى مما يقبل الاستثناءات وينطبق على هذه النفس وكل جزئية من Shandhas وهى نعنى (خصوم الشخصية، أعداء الشخصية) والتى لا يتواجد أى منها وجودا منفصلا ومع ذلك فإنه يكون واعيا أو يكون هو ذلك الصوفى الذى يمتلك كل اسرار العالم أو أن جميع أسرار العالم قد دانت له وخصوصا فيا يتعلق بكونه لا مولود unborn لا متشكل unform لا متأصل unorginated والتى أسماها الهندوس THAT ذات، وكذلك سمى أعظم العقول البوذية بمعنى sungate من the void المسمى بالفراغ فراغ كل الأشياء المنفصلة ولهذا السبب لا يكون فى الوجود وبالتأكيد الطريق إلى النرفانا هو الطريق إلى الوطن والعودة لذلك الوعى الوحى of THAT هو نوع من اللاتجلى ولكنه يجد فى نفسه أكثر من shandhas وذلك بالانعكاس المظلم لضوء المستنير والذى لا يمكن أن يصل إليه. انه يجد جهازا من ذلك الالهام السامى وذلك الطموح العظيم الذى لا يتعلق بالعمل ولا بالسياسة ولا بذلك النوع من التسلق الإجتماعى ترى ما هو هذا الشيئ يمكننا أن نسميه هذا.

ذلك النبض الداخلى «للكارما» لو أن هذه الجملة قد ساعدتنا على الفهم أو ما نستطيع تسميته شخصيج أكثر إنسانية، وأكثر نوعا من الاصطلاح المساعد نستطيع أن تسميه بوذا ذلك الملتف فى متاهات الوهم illusion محترفا بالنيران الثلاثة:

١- نيران الكراهية. ٢- Last الشهوة. ٣- الوهم.

ونعطى بهذا النوع من الروابط بما يعرف بمئات الأشياء التى تناسبه من الماضى، ولو أردنا أن نسمية روح الغرب ولكن هذا خطير لو أن المسيحية تتحدث عن روح خالدة غير فانية، وأن شيئا واحدا نستطيع أن نعرفه من تلك الإرادة المتوسطة فينا مثلنا مثل الآخرين، أنها تتغير سريعا وهى غير معروفة تماما بالنسبة لما يعرف بالخلود.

ومع ذلك فإذا أردنا أن نقدم الرأى عن معنى الأنا كما يتحدث عنها علم النفس الحديث والذى يصفها بأنها كالوهم illusoon كما لو أنك ترى ثعبانا فى الطريق فى ضوء القمر قد يكون على مر أى قريب من قدميك ولكنه يبدو كالحبل، هكذا تكون النفس مجرد وهم، أنها بالضبط لا تتواجد أو لا يكون لها وجود. إن كل الطاقة تتفق فى كل شكل من أشكال اهتمامات النفس وتمددها لكى تكونها أهمية فى عيون الناس وكذلك الوهم والألم الناتج من الوهم لأن هذا هو الرغبة، تلك الرغبة للنفس التى تقف ضد الكل. والذى أعتقد بوذا أنه سبب المعاناة. هذا الطموح الشخصى مع هذا الغرور وتلك المشاعر التى يجب إلا تكون مؤذية. ومع تلك الأهمية التى يجب أن تعرف يجب أن تسمح لها أن تموت أو من الأفضل أن تقتل، ثم أنها تكون ميته لكن يجب أن تلاحظ لأنها قد ينهض قائما من الموت مرة ثانية (ان النفس هى سيد النفس) Self is the lord of Self هذا يقول دمبادا Dhammabada، ومن آخر يمكن أن يكون سيدا. وعندما تنتقل النفس من شخصية تتحرك من حياة إلى حياة فإنها تغتال النفس

التى تمنعها من الاستتارة. دعها تحذو نحو ذلك خشية أن تنهض تلك الرغبة فى الوجود المنفصل عن الهاوي التى هى (الأنا). ومع ذلك فإنه ليست كل الرغبات خاطئة، وبدون الرغبة بشكل ما فإننا نفتقد القوة الدافعة للوصول إلى النرفانا. أن لعقل أداة رائعة عندما يتطور ينموا نموا كاملا وبصفه خاصة فى الإنسان الذى فيه تنشأ كل نيران النفس ولكنها متيه. وهذا لا يمكن أبدا أن يقطع الرحلة النهائية إلى القمة. إن العقل والعلم الذى بناه الغرب فى حقل الفكر يتعلم كثيرا وكثيرا من قوانين الطبيعة ولكن الحياة بالوعى السامى أو الوعى المتسامى أبعد بكثير من متناول تلك الأدوات العلمية، وسوف يبقى الأمر كذلك على الدوام. وحتى لو أن تلك المشكلات قد حلت أن يتسائل العالم ولو وجد الأمر ممكنا على هذا النحو كما قال بوذا فإنها مجرد قوة تتغير فى كل لحظة وفى كل وقت.

إن الحدس Intuation إن القوة اللا مولودة فى كل عقل، تلك العقول ذات الوعى المباشر تستطيع الآن أن تعرف الحياة والحكمة (سمها سوف نسميها به) وعلى بساطتها ثم شاهد الحكمة والعاطفة من الناحيتين التوأمتين فى الحقيقة السامية والوعى الذى تسميه بمصطلح أفضل النرفانا. إن البوذا لم يتكلم إطلاقا عن النفس، ومع ذلك فقد اضطر أن يفعل ذلك. انه لم ينكرها ولم يصفها ولم يصف اللا مولود كما لم ينكر وجوده، وفضل أن يشير إلى المعاناة وأسباب المعاناة ويشير إلى الطريق لإزالة هذا السبب. وفى هذه الأثناء فنحن نكافح ونخوض معارك فى مجل ومجال القوى ونحارب وتحترق بالكراهية والشهوه والوهم ومع ذلك فإنه فى تلك الحظات الممتازة السامية والتى ننظر فيها إلى الضوء الذى يرى الآن معتما ونريد تحقيق الاستنارة الباهرة فإننا سنحققه يوما ما ،كيف تغتال النفس التى تقف فى الطريق وتطور الملكة التى تنتظرا فى النهاية؟ إننا لا نستطيع أن نعبد أو نصلى فلا مخلص يسمع ندائنا، وبالتأكيد فإن الطريق وفقط الإجابة ابدأ بالدراسة المتفحصة للآراء الصحيحة واستمر

خلال كثير من الحيوات وخلال التدريب على العديد من الشخصيات. ثم ومع الاستيقاظ البطئ للحاسة الخاصة بالوحدة one- oness مع حاسة لها أشكال أخرى من الحياة مثل البوذية التيه Badhi-sitla أو ما يسمى بقلب المتعاطف الذى يعرف الحقيقة تلك التى تكمن خلف نفسنا الحاضرة والمشرقة ثم يأتى بعد ذلك أول ضوء من ذلك الوعى العقلانى المتسامى. إن البرجانا Prjana تشاهد فى حالاتها البسيطة ومع لك فنحن ننادى تلك الأضواء التى تتعدى الوصف وتتعدى أيضا كل جدال، وفى هذه اللحظات الفكرية نحن نعرف ونرحل ونسافر فى رحلة تساوى ذلك الهلاك والتضحية بالنفس، وفى هذه اللحظة نعرف النرفانا وتعرف أنه حق والبقية ما هى إلا توسيع لتلك العلمية المسماه بالتمدد فى الازدهار الكامل فى اليوم المبارك ولكن أولا علينا أن نذهب إلى هاوية النفس ثم نصعد إلى الجبل الذى سكنه بوذا ونقوم بتلك الرحلة الخيرة.

(٦) «الرأس والقلب»

إن المعرفة التى نستخدمها دون إن يكون لها مصدر عاطفى قد تحطم الجنس البشرى تماما؟

وكما يذكر دكتور سوزوكى أن الأساسين التوأمين للبوذية هما «المهابراجنا Maha Praja والتى تعنى الحكمة السامية والمهاكرونا Maha Karuna والتى تعنى العاطفة السامية وإن الواحدة منهما غير مقيدة بدون الأخرى لأن الإنسان يمشى على قدمين وإن العقل وحدة خطر لأنه يولد الشهوه من أجل طاقة الكراهية الأقل ظل من الرأى المنافس والوهم الذى قد يدعى معرفة الحقيقة أحيانا. ومن ثم فإن تاريخ الحرب الطويلة بين المدارس المتنافسة وبين هؤلاء الذين ينتمون لها بين الأمم التى قاتل زعمائها من أجل المفهوم السائد الذين قد حصولا عليه، ومن ثم فإن عدم الثقة فى القلب عند الرجل العادى فى موجهة الرجل الذكى، الشعور بالبرودة وإنحطاط المزاج العقلى الذى لا ينفعل بالإنسانية، ويسبب الكونية والمشاركة العاطفية والحب لكل الجنس البشرى.

أن السيد بوذا نفسة لم يكن «عقلانيا» فحسب لكنه نفذ بعيداً من خلال الفكر الخالص أكثر من أى إنسان قبلة فى التاريخ لكنه مع ذلك يضغط على عبارة واحدة تعطى التحليل النهائى لكل الظاهرة ومع ذلك فقد كان أول عالم فى الاتجاه الموضوعى لكل ما يكون، وما كان فى تطبيق حكمتة وحلول العاطفة وكانت حياته بهذا تسير إلى تفسيرها فى مصطلحات بسيطة. وهو الطريق الذى يسير فيه الآخرون وبالمعاناه الصحيحة وينتهون منها وهكذا تحدث إلى المعناه Kisagotami. وهكذا كان يعنى بالتلميذ المريض وهكذا كان يواسى أناندا Ananda التعيس فى النهاية.

إن عاطفته كانت لعامه الناس، وقد إلتقى معهم بقلب محب كرجل لرجل ولكن

---

(1) Exploring Buddhism, p.p. 80-81.

ما هو البديل إذن للعقل؟ والعاطفة؟ وبالتأكيد لا بديل، وبالرغم من التحليل الجانجى للينابيع التى تتفجر فى الرجل المتوسط، ومع ذلك فإن الأقسام الثلاثية لما يعرف بالرجايوجا Raja Yoga فى الجانانا Janana، والباهكتى Bhakti وكذلك الكارما يوجا Karma Yoga تنطبق على كل الرجال لسنا جميعا من أتباع الجانانا يوجا وهؤلاء الذن يبحثون عن المعرفة الخالصة لا يمكن أن يكونوا موجودون، وبدون الملايين من اليجويون من النجاكى هؤلاء الذين يتطورن من خلال التضحية للمعلم، والذين يضحون للمثل الأعلى لولا هذه لما كانت البوذية كنوع من لتعاليم فى مئات السنين ولعاشت كمدرسة صغيرة من مدارس الجدل والعقل الخالص.

والواقع أن الطريق البوذى مقدس فى شكل البوذية المعقدة التى أنتشرت فى العالم منذ ألفين وخمسمائة سنة. مع ذلك فإن عددا غير محدود من الملاين من البشر رجالاً ونساء والذين لم تتمكن عقولهم من فهم ما فيها من نواحى الجمال أو على سبيل المثال لم يتمكنوا من إنجاز نوع من التطابق مع التطور اليومى لهذه الطريقة.

وتبقى هناك الكارما يوجا Karma Yoga وما يعرف بالطريق إلى الفعل الصحيح. وهو واحد من ثلاث طرق يعرفها الغرب، ويوضح لماذا تكون الكارما والتناسخ أو عودة الميلاد Rabirth هى موضوعات رئيسية فى الطريق البوذى.

وعندما يتساءل المضحون بأنفسهم فى طريقة الباهتكى عن كيفية عمل أى طريقة وكيف يمكن أن تنطبق على الحياة اليومية فإن البوذى هو الذى يتمكن من الإجابة على هذا السؤال ومع ذلك فإنه من داخل الجسد البوذى وبالتأكيد بالقرب من القلب تكمن أشياء وتحليلات غير عاطفية كما ينبغى أن تكون.

وكما يقول بوذا فإن كل الأشياء بدون إستثناء هى فى تغير دائم ، إن كل الأشياء المرئية وغير المرئية هى Anatta (١) وبدون نفس متواصلة ولقد رفضت هذه النظرية عندما قرئتها لأول مرة بينما كان سنى صغير وخبرتى بالبوذية قليلة كما

(١) تعنى كلمة Anatta النفس واللانفس A Atman and no Atman

رفضت المفهوم الحديث لهذه النظرية بإعتبارى غير مؤهل (باللانفس) لأن بوذا وطبقا لقانون بالى Pali يعتقد أنه لا شيئ من هذا النوع يحدث ويرجع هذا جزئيا، كما قرأت إلى أن بوذا تعلم عن طريق الصمت وبطرق أخرى عكس الصمت وبالتحديد ولأننى فى الغالب أإفض الحقيقة التى تقول أن كل ملكة من ملكات المعرفة أمتلكها بما فى ذلك الحدس Intution يخبرنى أن غير طبيعى تماما ومن ناحية أخرى فأنا أقبل النظرية التى تقول أنه يوجد شيئ ليس فى أنا وليس فى أى إنسان، هى مكلة منفردة أو الجزئ الذى لا يتغير فى أو فيه، أو هو خالد أو منفصل عن «الكل» والذى يسمية الناس على إختلافهم دراماكايا Darma Kaya أو طبيعة بوذا أؤ الحقيقة أو الله.

وهذه نظرية لها فانه ضخمة بالنسبة لكل الناس وأنا أعتقد أن بوذا كان قد تعلمها،. وبالنسبة لما يعرف بـ Dukka التى يسببها الإنسان يقول البوذى- دعه يزيل السبب. ولكننى أنكر أن البوذية هروب من المعاناه. وإن طريق القلب كما هو معروف مختلف عن طريق العقل ويقود مباشرة إليها ويمر فيها أو من خلالها حتى آخر قطرة من بحر المعاناه الذى سببته دموع الناس، والذى إستنار ورسم بواسطة نور الشمس، ثم أن الشعور بالإنفصال هو بسبب الرغبة (شهوة النفس) ولهذا فلا مزيد من المعاناه.

وعندما تتحلل النفس بلا شفقة تقول وماذا لتقول (أنا) وأنا وإنجازاتى؟ إنه لا شئ. ولكن ما الذى يبقى عندما يحاول العقل أن يرضى نفسه ويثبت أنه لا وجود لقوة أعلى أو نفس أسمى وأعظم أو ما نطلق عليه «النفس دائمة المجد» والتى هى نور الأنوار.

إن الإجابة تأتى من القلب بذلك الوازع الدفين فيه لتقول له أنه هناك شيئ فيه أعظم من الآن» وهو الإنسانية. وهى أعظم من أى جزء فى العالم أنها (الكل) ولكن القلب أكثر كثيراً إن تداخل الملكات الإنسانية يعكس هذا الإتجاه العميق ولكن الحدس يشع مستويات سامية من المعرفة كما هو فى هذا الفكر، وهكذا فإن الإجابة تحدد هدفا للقلب يقف فى مواجهة العقل الخالص وهو غالبا ما يكون موقفا صحيحا ومثيراً، إن

البوذية تعرف أنه لابد من المعرفة عن وسيط وهى تعرف دون وسيط، تعرف واحدية(١) كل الأشياء وتعرف الدورات التى تصبح فيها كبيرة وصغيرة والتى بها تتحقق هذه الوحدة فى حقل واسع من التنوع وبطريقة ما تنجز أهدافها السامية.

إن صوت هذا العرفان وقانونه وأداته هو العاطفة والعاطفة ليست خاصية بل هى قانون القوانين وهى الإنسجام الخالد أنها جوهو الوجود الذى لا شاطئ له أنها نور الحق الدائم، وإنها الملائم لكل شيئ ويتبع فهمنا لهذا المعنى أن يكون نموذج الأرهات المثالى Arhat ideal (٢) محدود بالرغم من أن حدوده بالنسبة للكثيرون منا تظل خارج نطاق الرؤية والفهم وفى الوقت الحالى ترى هل يكون هو العابد الذى يمكن أن نطهر عقله وان نسمو به فوق عقولنا؟ ومن السهل ان نختار طريق البودستاڤا Bodhisattva بحجة انقاذ الجنس البشرى كله، ولكى نتعامل مع كل أمراضنا فى مواجهة أمراض الآخرين، ولهذا السبب يمكن نوف على أنفسنا العمل الغير سار الذى يكون ناتجا عن البحث عن جذور الاسائة المرغوبة fond offence واغتيال النفس التى تصرخ عاليا من أجل المجد المستمد من انقاذ حياه الآخرين عندما لا يتمكنون من إنقاذها.

وعلى المدى البعيد وعندما نستمر فى طريقنا فان الطريقين يلتحمان ويرتبطان، وفى هذه الاثناء دعنا نلاحظ الرأس والقلب كطريقين متآخبين على طريق واحد، ولكن نلاحظ فى ذلك أن طريق العقل يستخدم من أجل طريق البودستاقا Bodhisattva(٣)) ولا ينتج عن هذه الأنانية الظاهرة والتى تقود بدورها إلى طريق البراتيكا البوذى Paratyeka الذى يحقق حالة النيرفانا (٤) فى نفسه وحده.

(١) الواحدية مصطلح فى الإنجليزية بمعنى Onenss وهو يستخدم بمعنى الوحدة المشاهدة فى الكثرة أو الكثرة التى تنتهى إلى الوحدة وهى علاقة بين الواحد والكثير أو بين الوحدة والكثرة كما هو عند صوفية المسلمين- المترجم.

(٢) ونموذج الأرهات Arhat هو النموذج العاطفى الذى يتعلق بتطهير العقل والقلب واسموسمها (المترجم).

(٣) البوستاقا Bodhisattava وهى الطريق لإنقاذ النفس وعلاجها من أمراضها.

(٤) النيرڤانا، حالة من السعادة القصوى التى تتحقق بالوصول إلى التوازن النفسى الناتج عن الإتحاد بالمعبود (الترجم)

ويحدث ذلك لأنه يوجد طريقين بالرغم من أن الطريق واحد. فان تعاليم الرأس هى نظرية العين أو الرؤية متاحة لكثيرين (المعرفة الحسية متاحة للكثيرين) بينما نظرية القلب (أو المعرفة القلبية) متاحة لعدد قليل جدا. أن الادراك البصرى The Dharama of the Eye متعلق بالعالم الخارجى المتغير دائما، بينما الادراك العقلى The Dharma of the Heart يحقق الادراك البوذى أو الحكمة اللامحدودة والثابتة غير المتغيره ويكمن التمايز فى الطريق الذى يتم اختياره أو تعقبه. وسواء بالنسبة للنفس ومهما كان تحليلها غير دقيق أو موسوس، أو بالنسبة للكل مهما كان غامضا، وكما لو كان علاوة على هذا الاحساس الهزيل وعلاوة على قوة الفكر والتى تقع بينهما وتخدم نموذج الكل Wholeness وبين هذين الطريقين فنحن نختار فى النهاية بشكل نهائى، وفى هذه الاثناء وبطريقة بسيطة نحن نختار كل لحظة فى اليوم كما لو كان احتاجا لجزء أو ادعاء للكل الذى يجذب بشدة.

إن النفس فى خاجة إلى العاطفة الحسية والاشباع العقلى، ومن يجرؤ على إنكار الثنائية والتوتر بينهما وفى نفس الوقت هى النفس الأعظم الذى فيها يوجد هذين الطريقين، إن هذا يخدم الحياة الواحدة، أو الضوء الخافت الكامن ابعد من المدى الذى يصل إليه الفكر والذى قبله يسقط العق ويضعف بالرغم من كل عظمته وجلاله. ان الطريق الواحد يقود إلي الحكمة المتراكمة عبر العصور والتى اختبرت وتنوعت بواسطة الأجيال من الناس وأصبحت مكمة ودقيقة، هؤلاء هم الذين يكون فيهم الأب والسيد أعظم من أبناء الرجال، جوتاما المستنير هو السيد وهو الأعظم والطريق الآخر وحيد حقا ويختار الحجاج منفردين أجل الحصول على المكأفاة وحدهم هذه هى الفيلة الحمراء Rogue elephants والتى انفصلت عن القطيع، ويجب أن تواجه الدمار بالرغم من أنها قد تحقق بركة تستحق الاعتبار فى الطريق، وفى طريق القلب فإن الطريق مطلق،

(1) See Exploring Buddhism. p. 84.

لدرجة أنه حتى ولو تم التضحية بالهدف النهائى من أجل الكل تكون الخطوة الأولى فى هذا الطريق حقا هى الحياة من أجل فائدة الجنس البشرى.

وهذا هو طريق التضحية الذى قيل فيه انه لا مثيل لطريق التضحية، هناك؛ فقط فرصة لخدمة طريق الارهات أو اتقاذ الجنس البشرى، وهو أول طريق يجب ارتياده ولاننا يجب أن نبدأ بالطريق الذى ننتهى اليه مع خلاص النفس فنحن لا نفقد لثانية واحدة مطلقا الاتصال مع الحياة والنور أو ننفصل عن الواحدية (واحديه الدارما والكايا) أو الطريق العقلى والطريق القلبى.

يقول صوت الصمت بالرغم من عدم الكينونة الخاصة من الكنينونة المطلقة فإن ما يبقى هو إنغماس المحيط فى القطرة وانغماس القطرة فى المحيط (بمعنى أن المطلق ينزل إلى النفس الفرده ليكون فيها فى القلب كما أن الكينونة الفردية تذوب فى المطلق.

أم طريق الأنانية الفردية أكثر سهولة لأنه فى هذا الطريق يكمن الهروب من الحزن أن طريق البودستاڤا (١) يتجنب كل سعادة منذ البداية وحتى النهاية. وفى هذا الطريق من طرق القلب فالكل يبتلى به، أن كل معاناة العالم والآمه تواجه وتستهلك فلا يبقى من النفس شئ فى النهاية، وبالنسبة لكل من يطيع الأمر بالبقاء غير أنانى حتى النهاية اللانهائية. يبقى فقط الاختيار وميزه الاختيار والعاطفة البارده، وهدوء الفكر غير المضطرب الفكر النقى، ويتم التوجه إلى هذا العمل الذى لا يتوقف بواسطة العقل القلبى ليقدم الدراما إلى كل الجنس البشرى، وليقود كل أشكال الحياة إلى آخر شعاع من أشعة الاستنارة.

وبينما يتكلم العقل وحده فإن الانسان يغتال الآخر منذ الآخر منذ فجر الزمان بل ويحاول أحدهما التغلب على العقول الآخرى فى عملها وكدحها اللاعاطفى وبينما

يحكم القلب عمل العقل فإن العقل يجب أن يصمت ومن خلال الصمت تتحدث العاطفة وتقول- هل يمكن أن تكون هناك بركة عندما تعانى كل حياة من الألم؟ وهل لا يمكن إنفاذ كل هذه الحيوات ونحن نسمع العالم يصرخ؟

وهكذا تمشى الحكمة البوذية على قدمين رئيسيين هما العقل والقلب، ويقصد بالعقل هنا عقل ينشأ فى القبل أو من خلاله، ولا تنال الاستنارة الكاملة إلى عن هذا الطريق المزدوج ولا تحدث المعرفة إلا من خلاله.

التركيز والتأمل

صفى عقلك ودع الخواء المشتاق إلى كلام الصمت

أركن إلى السكينة

ودع البصر والصمت يؤتيان ثمارهما

صفى عقلك من كل ما يعتمل البشر

* التركيز والتأمل

يقول د. ايفان فى مقدمة كتاب «تأمل البوذية» إن التأمل هو الطريق الممكن لتأمل الإنسان لذاته هذه المقولة الرائعة حقيقة بشكل كبير وبعبارة بوذا المقدس «توقف عن فعل الشرور وتعلم فعل الخير وصفى القلب هذه هى تعاليم بوذا».

فى البداية تأتى العملية المزدوجة لتجنب الطرق الخاطئة فى التفكير والسلوك وتنمية تلك الطرق التى تعبر عن الانسان وعن الحق وبعد ذلك سنفتح الطريق النهائى للحق، ومهاجمة الوهم، وهم النفس وكل أفعاله نحو حياة الفضيلة كل هذا التنوير الكامل لعقول الأشخاص وذلك عن طريق النور الذى يتدفق ببطئ ليزيل كل الحواجز التى أحاط بها الإنسان نفسه.

إن هذه العملية ليست انقاذا للروح بقدرما هى تحريرا للنفس من النفس ولعقل الناس من وهم الانفصام ثم تنحصر هذه العملية من تحرير النفس على العقل البشرى الذى يستفيد نهائيا منها وليس هناك أهم من ذلك لدى البوذية فطلب المعرفة وتنمية الفضيلة وحتى فعل الحق والخير تأتى ثانوية بعدها «فى المرتبة الثانوية» ولا تحمل فائدة كاملة فى حد ذاتها والسبب بوضوح يتجلى كما جاء فى تعاليم بوذا «إن كل ما نحاه هو نتاج لأفكارنا انه موجود فى أفكارنا انه مصنوع من أفكارنا» ان العملية المستمرة لان نكون متنورين هى عملية رائعة وعظيمة وعندما نترجم الافكار التى تسكن عقولنا الى افعال خيره واخرى شريرة وبناء على توجه هذه الافعال نحو الحاسة الخاصة بالوحدة onenss أو بعيدا عنها فعدما تكون الافكار صالحه حتما سينتج عنها اعمال صالحه.

وطريق بوذا بعد ذلك هو تحرير النفس من سلطان العقل والعمل المنظم والمستمر

لتصفية الذهن والتى تتسع لتشمل العمل اليومى كله والطريقة التى تستخدم فى ذلك تختلف باختلاف المدارس البوذيه المختلفة. ، ففى الغرب فطريقة thervada هى الطريقة المثلى والاكثر تطبيقا واجد انه من المفيد السير هنا مختصرا لجوانب هذه الطريقة.

النقاش حول هذه الطريقة ينحصرفى أن كل البشر يعانون من الكراهية والرغبة والوهم. ان الخطأ يكمن فيهم وينبع من وهم النفس وحيث ان هذا الوهم الذى يستقر فى العقل البشرى فيجب ان ينقى هذا العقل من خلال برنامج تدريبى نشط والذى من شأنه تدمير هذا الوهم وان يوجد مكانه وعى يقظ بالواقع الذى يوجد فيه العقل فقط دون النفس إن هذا ما يطلق عليه بهافانا Bahavaana وهى عملية تحرير العقل وتأتى فى مرحلتين:

المرحلة الأولى: Satipathana وفى هذه المرحلة يتم التحكم بالعقل البشرى وتدريبه على ان يرى الاشياء كما هى مجرده ثم العواطف وافكار النفس ويعد ليكون الاداه للوصول النهائى لمرحله التنوير.

المرحلة الثانية: وفيها يتجاوز العقل حدود الالة ولكن فقط بالعقل ايضا ولكن. هل يستطيع العقل ان يتم هذا التجاوز وهل هناك طرقا مختصره تتفادى هذه المراحل الاولى. والجواب إنه فقط من خلال التحكم فى العقل وتنميته بصوره جيده نستطيع ان نصل الى هذه المرحلة النهائية من اللاعقل والعقل فى آن واحد وهى بصيرة الروح او Vipassana والتى تساوى Satori فى تعاليم zen ولكن العلاقات الحقيقية بين هذه المراحل السامية من الوعى تعد قضايا متقدمة وجدلية وليس مقام مناقشتها هنا.

فى برنامج satipathana فإن المراحل الأربعة من الوعى يتم الوصول إليها ويتجاوزها وكذلك الكثير من القدرات الخارقة تنمو تدريجيا كل هذا فى بصيره المتأمل البوذى ولكن دور المعلم هام فى هذا البرنامج التدريبى دور هام لمساعده التلاميذ فيما يحتاجونه.

فى الغرب فإن حاجة «المدرسة الغربية» الى بعض الارشاد والبرهان فى تنمية العقل قد تحول منذ ٣٥ سنة ماضية الى سيل من الكتب ولكن بغض النظرعن الحافز الذى سيطرعلى كل مؤلفى هذه الكتب فقد كانت هذه الكتب جد خطيره.

فعبر هذه الكتب لم نجد كلمة واحدة تتحدث عن الدافع الصحيح لتنمية العقل او تنوير الوسطاء من اجل خير ونفع البشرية ولكن القارئ لهذه الكتب تم دفعه لان يدرس ويمارس امتلاء العقل والمراحل التالية من الممارسة البوذيةج وذلك من أجل كفاءة العمل او تقدم السمعة الشخصية.

وفى ظل هذه الظروف ظهرت كتب «التركيز والتأمل» والذى جمعت مادته ونشر بواسطة المجتمع البوذى منذ سنوات مضت مخاطبا العقلية الغربية.

وتركز على اهمية الدافع الصحيح «الحق» وموجها إنذاراً كافياً من الأخطاء التى تبدأ بالصراع وتنتهى إلى الجنون والتى تنتظر أولئك الذين يبعثون بالقوة العظمى على سطح الارض وهى العقل البشرى.

وفى نفس الوقت فان مس لونسبرى فى جمعية محبى البوذيه فى باريس قد نشرت تأملاتها حول المدرسة الجنوبية مؤكدة على نفس النصائح الى المبتدئين التى قررناها فى عملنا الأكثر كاثوليكية.

والكتابان يؤكدان الى الحاجة الى الممارسة كما يقررها د. ايفانز وينتر فى

مقدمته الى كتابها «كتاب مس لونسبيرى» حيث يقول «ان البوذيه تؤكد على ان ادراك الحقيقة أكثر أهمية من الايمان بالحقيقة «ذلك الإيمان والولاء الدينى يكون بشكل مجرد الخطوات الاولى على الطريق وهذه الخطوات فى ذاتها ليست كافية ذلك انه لكى تكون الحقيقة فيجب ان يكون هناك اعتقاد صحيح، نوايا صالحه، خطاب صحيح، أفعال صالحه ووسائل حياتيه صحيحه ومساعى صحيحة وامتلاء عقلى صالح وكذلك تأمل صحيح.

وبعبارة أخرى وبقياس قديم فانه من العبث ان تجلس على كرسى عند مفترق دسته من الطرق لنتأمل ما يستحق كل منهم وطبيعة هذا الطريق والهدف من نهايته.

انه من الافضل ان نقوم وان نسلك الخطوة الاولى على أية من هذه الطرق على أن نتأمل كل هذه الطرق دون ان نمارس أحدهم.

وفى الواقع توجد أهمية كبيرة لممارسة التأمل وبالنسبة للمبتدئين الجدد نقول ابدا ثم استمر فى كلتا القاعدتين للتاموس tamas لان الخمول عادة ما يقاوم الارادة. وإذا كان من الصعب ان نخطط ونبدأ فترة طويلة من الجهد فلن يكون بإمكاننا الاستمرار ولكن النتائج المبكره من السيرة على الافكار وصفاء العقل وهدوء الداخل ستقنعنا بانها تستحق هذا الجهد المبذول.

واحدة من الصعوبات المبدئية هى اختيار الاصطلاحات الانجليزية فعلى سبيل المثال سماساتى samma sati أو الخطوة السابعة من الطريق البوذى ذو الثمانى مراحل يتم ترجمتها على أنها الامتلاء العقلى الصحيح بينما الخطوة الثامنة سما سمادى samma samadhi قمة الطريق تترجم على أنها التركيز الصحيح.

وفى الحقيقة فان هذه المصطلحات غير قابلة للترجمة ولكن إذ اعتبرنا ان التركيز هو ايجاد الاله او الاداة فان التأمل هو الاستخدام الصحيح لهذه الاله.

التركيز الذى هو مصطلح أوسع بكثيرمن مجرد الفطنة او الانتباه يمثل مرحلة أولية من Saptipathana ويبدأ بالانتباه الكامل الموضوعى وغير الشخصى إلى الاشياء والمهام التى نحن بصددها وان كل رجال الاعمال الناجحين يكتسبون هذه القدرة والتى بدونها يصبح عملهم اليومى مستحيلا.

وإنها لا تبدو فى سياق روحانى بقدر ما تكون القدرة على توجيه الافكار.

إن الشخص الفخور بقدرته على التركيز رغم كل ما حوله مما يلفت الانتباه سوف لا يقدرعلى ان يضئ مصابيح فكره نحو الطبيعة فالغربيون منفتحون ولذا فان قواهم تتوجه نحو المال، السياسة وحتى شلالات نياجرا.

بينما الشرقيون القدماء اتسموا بالانطواء ولذا فانهم بحشواعن قيمهم فى داخلهم وملمح القيم عندهم كان فى اتساع العقل ليستوعب قدرات عالم الشخصية وفى الحالاتين فان العقل يجب ان ينكسرويصبح عبدا لارادة صاحبه وهى مهممة جد عسيرة كما خبرها كل أولئك الذين حاولوا أن يركزوا أفكارهم نحو شئ معين وكما يقوم الجندى سهامه فان الشخص العاقل هو من يقوم عقله المعوج والتى هى فى الحقيقة مهمة صعبة وبين اختيار موضوع يأتى عرضا فى طريق الحياة الطبيعية مثل الحسابات التجارية أو الكمبيالات وبين اختيار لمجرد التدريب على التحكم بالنفس بين هذين الاختيارين خطوة هائلة والعقل يبحر فى هذه الخطوة.

فى البداية قد يكون الشئ خارجيا كزهرة وردية، منظر طبيعى أو مقبض الباب ثم سرعان ما يصبح هدفنا داخليا مثل عملية النفس مثلا أو الجسم كله أو المشاعر فى

سراعاتها او ارتفاع وانخفاض الافكار فى العقل البشرى. ولقد أشارت مس لونسبيرى بأن الاشتياق يساعد على القدرة على التركيز أكثر مما نفعل ذات الشئ بدون اهتمام ويبدوا هذا ذا أهمية كبيرة لتحديد اهتماماتنا.

عندما يتم تمرين العقل على الطاعة تماما كما يتم تدريب كلب صغير على ان يأتى نحو أرجلنا عندما ندعوه كذلك التلميذ عندما يصل الى المرحلة الائقة لأن يبدأ فى التأمل. مجرد هذه البداية فان يبدأ فى تطبيق قواعد جديدة وينقاد تبعا لقوانين حياتية جديدة فمن يريد ان ينقذ نفسه والعالم من حوله عليه ان يتبع مرشديه فهو يطور وينمى قدرات وقوى خاصة لا يعرفها ولم تسملها قط قدراته العقلية.

وتماما كما السحر فان قوانين الطبيعة لم تلمس بعد بأيدى العلماء المتخصصين فضلا عن الكثير من عامة الناس. ولذلك فان التأمل سريعا ما يمنح قدرات خاصة غير معروفة وغيرملموسة لاكثر رجال الاعمال مهارة.

وبعد ذلك لماذا يسأل المعلم تلميذه هل تتأمل؟ وهل تمنح وقتك، فكرك وطاقتك فى سبيل تنمية مهارتك العقلية أكثر من رفاقك؟ والاجابة تبود حيوية وبالايجاب هناك حافز وحيد لتقدم النفس وهو الحق وليس العظمة الشخصية وحقيقة فانه مع التطور والنمو الداخلى ونمو الشخصية قليلا ومع انسحاب الطاقة من مشاغلها الخارجية فان هذا الاحساس بالعظمة يخبو من عيون البشر.

ان الحافز الاساسى للتأمل هو تخليص النفس من الوهم وتنمية القدرة على الحدس. ان مرحلة التنوير من اجل العقل الواحد. وكل شئ خلاف ذلك هو شر واهدار للطاقة ورد فعل هذه الاشياء فظيع. ولذا فكر جيدا قبل ان تبدز فى التزمل وقرر اذا ما كان السبب وراء هذا الجهد الجديد هو الحق ام لا.

فى البداية فان العادات المادية تبدو ذات أهمية فهناك اسباب كافيةلان نهتم بالوضع الصحيح وتنظيم الوقت والمكان كذلك ان كان ذلك ممكنا وانه من الحماقة أن نبدأ متوترين فان هذه العملية يجب ان تتم ببطئ ولكن كممارسة منظمة وعندها ستبدأ النتائج فى الظهور. وبعضها سوف يكون مستهجنا وغير مقبول. ضوضاء نفسية واضطرابات عاطفية واحلام تحذيرية والتى قد تكون معوقات سيئة. ولقد ذكرت مس لنسبيرى خمس من هذه العوائق:

١ - الشهرة.
٢ - النوايا السيئة.
٣ - الكسل
٤ - حالات الهياج العقلى.
٥ - الشك.

وأنا شخصيا قد وجدت العديد غير هذه ولكن ما نحصل عليه من جوائز فانه يعادلها فهناك ذلك الهدوء للأجساد والمشاعر وخبو نيران الرغبة والكراهية والتى تضطرم داخل العقل.

الأفكار تصبح أكثر ثباتا وقوة وتزداد قدراتنا على التحكم فيها. كذلك تلك الطريقة أللاشخصية فى التفكير والأفكار الخالية من العاطفة وتلك المرجعية الدائمة للأنا تجلب نور من نوع جديد من الصفاء ويكتسب الحب معان جديدة. انها الشفقة التى تتكلم الآن مع صوت الصمت والهدوء وتقود الى الحق عبر الدوافع اللاذاتية نحو كل الافعال.

هذه التأثيرات لكافة جوانب الحياة يمكن ان تترجم للعديد من الافعال النافعة ففضائل براهاما الأربعة brahma viharns يمكن أن يتم التمرين عليها فى أى وقت وأى مكان من المكتب الى المطعم ومن حجرة الانتظار فى عيادة طبيب الاسنان وحتى الحافلة والأتوبيس.

وهذه الفضائل الأربعة هى:

١ - الميتا metta أو المحبة، أو النوايا الحسنة.

٢ - الكرونا Caruna أو الشفقة.

٣ - ميدتا Mudita أو التعاطف.

٤ - يوبيكا Upekkha أو رصانة العقل

ومن الاقتباسات الشهيرة من تعاليم بوذا دع عقله يشمل ربع العالم بأفكار الميتا وأفكار الكرونا وأفكار ميدتا وأفكار يوبيكا وكذلك يفعل بالربع الثانى والثالث والرابع وكذلك فانه يشمل العالم بأسره فوقنا وتحتنا وحولنا يشمله بمحنة القلب الشفقة، التعاطف ورصانة العقل ليذهب بعيدا بعيدا فوق كل تصور متحررا من الغضب أو نوايا الشر.

وأن التأمل هو كل غير متناهى. فكل الافكار النبيلة والفضائل يمكن استخدامها فكما قال ابيكتيتس العبد اليونانى (انه من العسير ان يمتلك الإنسان المبدأ بدون ان يتمسك به كل يوم ويمارسه فى حياته) وهل يمكن ان يتمسك به ونطبقه بطريقة أفضل من تأمله المستمر.

أكثر من كل كلام المفكرين والشعراء الذين يتكلمون عن الحكم السرمدية. وفى مجال التركيز والتأمل هناك القليل من الاقتراحات بعضها من الغرب حيث ممارسة (satipatthana) وعلى سبيل المثال التأمل فى الجثث والمقابر والتى صمممت لكى تجلى حقيقة (anicca) أو التغيرى الدائم.

ومن المؤكد أن هذه الأمثلة غير ملائمة للمبتدئين ولقد ذكرتها هنا لكى تمحو الاعتقاد بأن التأمل الشرقى مغرق فى هذا النوع من الممارسة أنها فى الحقيقة مرحلة

من الانسحاب الكامل والبطئ للعقل من الارتباط بالحواس واستخدامها كما يعرف بعضنا وحتى فى الغرب فإنها معروفة.

ولكن من السهولة ان تستمر بالضغط الطويل والمدرج فى مهمة مثل تنمية العقل فى إطار برنامج محدد وموصوف مسبقا وكذلك الحال فى البوذية وعلى الطالب أن يختار ما يناسبه أو برنامجه الخاص.

ويتبقى بعد ذلك الإصرار وسوف تأتى النتائج المستحقة لهذا الضغط المتواصل . إن المدى الكامل لـ Satipatthana الحق وامتلاء العقل متاح لطلاب لندن بإشراف مدربين مؤهلين ولكن هذا ككل الأنظمة الأخرى لـ Theravada فانها تحد نماذجها الى نموذج ارهات Arhat أو النموذج العاطفى الذى يتعلق بتطهير العقل والقلب فالأشخاص كاملى النفوس والذين يعملون لتخليص أنفسهم يعرفون أنهم وحتى يدفعون بعقولهم بعيدا عن فخ النفس حتى يستطيعوا ان يساعدوا البشرية.

وبالنسبة للرجال والنساء ذوى المزاج المتكامل فإن هذه البرودة والتحليل غير الشخصى وما يتلوه من التدريب العقلى حتى يصبح بالكفاءة السلسةلماكينة جميلة. هذا الاسلوب سوف لا يفى باحتياجاتهم.

مدى المهايانا Mahaayana أكثر اتساعا وهو كذلك متوفر ولكن الأكثر صعوبة فى الممارسة هى تعاليم zen والتى لا تقبل بغير التنوير المفاجئ والمباشر فى ومضات خاطفة فى البداية ولكن بعد ذلك كقدرة عقلية كاملة ومتطورة وقد تبدو هذه النقطة جدلية ولذا فان التدريب على تعاليم Zen يجب أن يبدأ بعد ان يصل العقل الى مرحلة شفافة متقدمة من الامتلاء العقلى الصحيح وليس قبل ان يصل الفكر إلى مرحلة من التطور ويتجاوز جمود العقل وكما أن لـ Zen نموذجه الخاص فانه يشارك

المذهب البوذى من مدرسة Mahayana . ولكن الشخص الذى كرس نفسه لخدمة الحياة العامة ولرفاقه من الجنس البشرى بصفة خاصة يجب ان يحاول أن يكمل من نفسه إذا أراد أن يقدم خدمه جيده خير من النوايا الطيبة.

ونموذج Ahart والنماذج البوذيه هى أشياء متكاملة كوجهى العمله.

من التركيز إلى التأمل ومن التأمل إلى التفكر هذه هى المراحل الثلاث ولا سيما هذه المرحلة الثالثة التى تتميز بوعى ومستوى إدراك ذا فائدة كبيرة وبغض النظر عن تسميتها Satori, Samahdi Vippassana أو أى تسمية أخرى فالكلمات لا تحمل قيمة كبيرة وكما جاء فى لانكافاترا Lankavatara

(اذا زعمت ان هناك شئ مثل الحكم النبيلة فانها الان لا تحمل الخير ولذا فإن كل الاشياء تشارك فى طبيعة الكون ولها جودة الولادة والتأكيد على أن كل الاشياء غير مولوده يحطم حقيقتها).

انه اصبح واضحا ان كل مقولة ونقيضها لها جانب من الحقيقة غير المطلقة فكل المتناقضات نسب وتبدو ذات معنى وأهمية فقط فى عالم نسبى.

إن تعريف التفكير وكما وصفته فى مقدمة هذا الفصل من كتاب التركيز والتأمل هو «الوعى النهائى والغير شخصى لكنهة الأشياء من حولنا «فعندما ندفع النفس عن عقل الملاحظ فإن البصيرة هى التى سوف ترى وسوف ترى البصرية كأنها كنه الأشياء . إن العقل فى الخواء يستقر على حالة اللاتفكير Mu.shin والعقل الذى يستطيع أن يصل الى هذه المرحلة لثوان أو ساعات يستطيع أن يتكلم ولكن لا يستطيع أن يتكلم عنها - الصفاء النهائى الامحدود والقوة التى تنبع من الحياة نفسها نحو العقل الذى أزال كل الحواجز امام تيار هذه القوة. لكن هذه هى ثمار

Bahavana فالشجرة يجب أن تنمو أولا من بذرة صغيرة الى شجرة صنوبر كبيرة قبل ان تبدأ الثمار فى الظهور. ففى البداية يأتى التدريب المدعوم بالنية الحسنة وارادة الحق ثم يأتى بعد ذلك الاستخدام الصائب لهذه الاله عندها فقط يتجلى التجرد للعقل من كل أوهام النفس.

إنها الحرية التى يسأل عنها التلميذ أستاذه قائلا كيف لى أن أحرر عقلى؟ فيجيبه الاستاذ ومن وضعك فى القيد؟!

القصيدة

صفى عقلك ودع الخواء المشتاق إلى كلام الصمت
أركن إلى السكينة
ودع البصر والصمت يؤتيان ثمارهما
صفى عقلك من كل ما يعتمل البشر
فوق هذه الأرض من الاختيار،
التقدير، تلك الأفكار المشاكسة
والطموح الذى يملئ النفوس ويقودها
على طريق البشر المحتوم كل تلك العوائق
التى تحيط ارادة الشوق
صفى عقلك وعش الحياة النقية
لتنساب غير مدنس بمعترك الأيام
حتى يصل فؤاد عقلك نهائيا إلى الحقيقة المطلقة
حيث لا خوف حيث الخواء الكامل الممتلئ

إن العقل والقلب يعملان معا فى تأمل الحقيقة المطلقة حيث الصمت المعبر عن مكنون الأفكار التى تدور فى العقل وحيث ينطلق التأمل إلى عالم لانهائى حيث الخواء الخاوى وحيث اللامولود اللامتشكل واللامتجسد.

" الفيدا"

آلهة أسطورية فى الفكر الفيدى

ينظر التراث الأوبانيشادى ألى الفكر الفيدى على أنه نوع من الحكمة التى تجاوز الزمن، وهذه الحكمة هى جماع الأقوال والأشعار التى نطق بها حكماء عظام إستطاعوا أن ينفذوا بقلوبهم إلى الجوهر الداخلى للوجود، وهذه الأقوال والأشعار ظلت مصدر الالهام فى التراث الهندى دون أن يعرف لها مؤلف بعينه .

وقد كان يعتقد أن هذه الأشعار مجرد ترانيم وأنشدة دينية إلا أنها أعمق من ذلك بكثير. فهى منبع ومعين النزعات الروحية فى الهند . ويبدو أن الاعتقاد السائد حول هذه الأشعار باعتبارها ترانيم دينية راجع إلى أنها فى معظمها تراتيل لتأدية الطقوس الدينية- لكن الحقيقة الظاهرة فى هذه الأشعار أنها تأتى تعبيراً عن الواقع ورؤية دقيقة له - ونلاحظ هنا أن الخطاب موجه إلى الالهة التى لا تعنى عندهم موجودات سماويه بل هى قوى تمثل الوجود بعناصرة كالماء والنار كما تمثل قوى الوعى أو الرموز التى تعنى عند أصحاب هذه الفلسفة أن تخلق الحياة ثم تدمرها أو هى تلك التي لها السيطرة التامة على الوجود .

ولعله من المناسب هنا أن نعرض لأسماء بعض هذه الالهة كما تظهر فى الفكر الفيدى .

١- (Agni آجنى) وهو من الالهة الرئيسية فى الفيدا وهو اله النار، ورمز القوة التى تدمر كل شيئ عندما تنطلق النار من عقالها. كما أنه رمز لطهى الطعام واللحم وتزويدنا بالطاقة عندما تكون النار تحت السيطرة (فى الفرن مثلا) وآجنى هو سيد الطقوس المتعلقة باحتفالات التضحيه والتى ترمز إلى تجدد الوجود وبعث قوى التغير فى الطبيعة (كالنار والبرق .. الخ) .

٢- (إندرا Indra) إله القوه والشجاعة- يهزم الاعداء ويحمى شعبه- وهو بصفة

رئيسية إله الحرب وملك الالهة وقائدهم فى المعارك، وهو يهزم قوى العماء والظلمه الكونية، ويفسح الطريق لأشكال الوجود الخلاقة، وهو يهتم بتناول الطيب من الطعام والشراب ويحب المشاكسة، وهو يركب السماء على رأس جيشه من الماروث (Maruts) وهم الهة العاصفة الأقل شأنا، ويرتبط بالبرق سلاحه الخاص الذى مزق به التنين فريترا (Vritra)- ويرد ذكر (إندرا) فى كتابهم (الريح) رمزا للشجاعة التى يحتاجها الناس لمقاومة أعدائهم [١] .

٣- ڤاك (Vac) إلهة انثى ينطوى فى داخلها الوعى الكامن بلغة الخطاب والحديث بماله من قوة هائلة على إصدار أوامر الحياة والموت- وقد جلعوها على هيئة سيدة جميلة لها القدرة على الحديث الجميل والوعى الجميل الألق .

وهكذا فان شعب الفيدا ينظر إلى الالهة على أنها فى صور بشرية ولها تصرفات وأفعال تمكن البشر من التعامل معها، بحيث يمكن للعابد الفيدى أن يفهم أعمق أعماق الوجود الذى أصبح متشابكا مع نسيم الحياة اليومية .

ويجب ألا نفهم من فكر التاليه الفيدى، أن الالهة فى نظر الشعب الفيدى قادرة على الخلق، لأن فكرة الخلق موجودة فى صميم الكون نفسه، بل إن العقل والمادة متضمنان فى الوجود ذاته. وتنظر الفيدا إلى الكون باعتباره كلا يعتريه النظام والانتظام، وينطوى على القواعد الأخلاقية والنفسيه والجمالية والدينية أو (الريتا) التى تهتم بكيفية عمل الوجود أكثر مما تبحث عن مصدره .

والسؤال الذى يبحث عن أصل الوجود فى الفيدا يبدو سؤالا محيراً يشبه إلي حد كبير ما طرحه فلاسفة المسلمين حول أصل الوجود وما إذا كان قد وجد من وجود

١- راجع كتابى الأستاذ الدكتور إمام عبد الفتاح إمام
- المعتقدات الدينية لدى الشعوب - سلسلة عالم المعرفة العدد ١٧٣، مايو ١٩٩٣، ص١٤٦، ١٤٧
- الفكر الشرقى القديم. العدد ١٩٩، لسنه ١٩٩٥ سلسلة عالم المعرفة الصادرة فى الكويت ص ص٤٤- ٤٨ .

سابق أو من عدم- فإذا قيل أنه من وجود سابق، فإن السؤال يظل معلقا. وماذا كان قبل الوجود السابق أليس وجودا أسبقا؟ ثم إن كان قد وجد من عدم- فإن العدم فى الفطرة لا يتحول إلى وجود إذ كيف يمكن فى نظر الفيدا خلق شيئ من لا شيئ ؟

وتعبر ترنيمة الأصول عن كيفية فهم الفيدا لأصل الوجود حيث لم يكن هناك فى البدأ وجود ولا عدم كذلك لم يكن هناك عالم ولاسماء- ولا موت ولا خلق (ثم أنه لم يكن هناك ليل ولا نهار وإنما كان هناك الواحد الذى يتنفس ويحيا بدافع من ذاته وما عدا ذلك لم يكن هناك شيئ على الإطلاق . فكأن الواحد كان موجودا فى العدم المحض أو قل فى العماء أو الظلام الذى ساد العالم . وكأننا هنا نقرأ فى فكر المدرسة الصوفية المتفلسفه عند محيى الدين ابن عربى وصدر الدين القونوي الذين قدما فكره الخلق باعتبار أن الوجود وجد من لاعدم ولا وجود .

وبمعني اخر فلم يكن العدم معدوما ولم يكن موجوداً وإنما كان فى مرحلة بين الوجود والعدم . وكان العالم والخالق فى عماء (ظلام) لا تمايز فيه [(١)] .

كان هناك إذن ظلام يلتف بالظلام لا شيئ يتمايز عن شيئ وكان الواحد محجوبا فى الخواء- وفى البدء كان الحب بذرة العقل الأولى وعن طريقه توصل الحكماء إلي الصلة بين الوجود والعدم لكن المؤكد عندهم أن قوة الخلق لم تكن قوه متاحة للالهه وإنما هى قوة ذاتية للوجود كامنه فى أعماقه.

وترنيمه الأصول تقول

من ذا الذى يعرف حقائق الوجود من ذا الذى يمكنه أن يقول هنا ؟

متى ولد هذا الخلق؟ ومن أين جاء ؟

لقد جاءت الآلهة بعد خلق العالم .

١- راجع أ.د إبراهيم ياسين، دلالات المصطلح فى التصوف الفلسفى دار المعارف مصر ١٩٩٣ مادة شيئية، عدم، راجع أيضا ترنيمة الأصول، فى الفكر الشرقى القديم، ص ٨٦ .

فمن ذا الذى يعرف من أين جاء العالم [1] ؟

فلا أحد يمكنه أن يقطع بكيفيه خلق العالم أو من أين جاء لكن فكرة الوجود والعدم عندهم تشير إلى وجود حقيقة كليه تنطوى علي الوجود والعدم معا. وأن هذه الحقيقه الكلية التي تحوى الأضداد معا تشير إلى نوعية الوجود السابق غير المنقسم للواقع وهى مصدر الوجود والعدم معا .

ويمضى الفكر الفيدي الباحث عن أصل الوجود مغلفا بالفكر الاسطورى الذى يحكى أن الوجود كان مغطى بالماء ؟

وكانت تحميه قوة عظمى لا نصل إلى كنهها- أليس هذا أشبه بما جاء فى القرآن الكريم "وكان عرشه على الماء" . وهى محاولة تصوريه من الفيدا لتجاوز الثنائيات المحصورة بما هو كائن وغير كائن. والتى تفصل الموت عن الخلود، والليل عن النهار، والنفس عن المتنفس تلك المحاولة التى تنتهى إلي عجز العقل عن الفهم لأنه لا يجد مجالا للنفى أو الإثبات، أو الوجود أو العدم، وإنما يقع فى ظلام يلفه ظلام .

ويمضى الفهم الفيدى فى محاولة لجعل الحب قوه إتصال ونماء ودورة حياة الكون كما هو الحال فى الفكر اليونانى عند إمبادوقليس. فيري هذا الفكر أن جذور الوجود إنما توجد فى الحب، تلك القوه التى توحد الأضداد فى كل خلاقّ جميل وجديد حيث تلتقى قوى الوجود والعدم لتلد كل الأشياء فى العالم [2] .

* إن الحكيم يتساءل: ما الذى كان هناك قبل الوجود والعدم! وتروى الأساطير أن الوجود كان مغطى بالماء، أو كيف أنه كانت تحمية قوة أعظم لا نصل إلى كنهها لكن الحكيم فى غمار جهوده للمعنى إلى ما يتجاوز الثنائيات التى تفصل الموت عن الخلود والليل عن النهار والنفس عن المتنفس. لا يجد مجالاً للنفى أو الإثبات. فالعقل

١- ترنيمة الأصول والفكر الشرقى القديم، ص٤٥- ٥٠ .

٢- راجع د. إبراهيم ياسين، مدخل إلى الفلسفة العامة، طبعة ٢ ٢٠٠ مادة امبادوقليس. ص
راجع أيضا- الفكر الشرقى القديم، ص٥١ .

الذى يبحث فيما وراء الكينونة واللاكينونة لا يجد إلا ظلاماً يلتف فى ظلام .

٤- فى البدء كان الحب الذى كان البذرة الأولى للعقل وفى سعى الحكماء الحكمة فى أفقدتهم اكتشُفوا الصلة بين الوجود والعدم .

٥- لقد انقسموا بالعرض فما الذى كان أسفل وما الذى كان أعلى كان هناك حاملون للبذرة والقوى الهائلة دافع من أسفل وحركة إلى الأمام من أعلى .

* ربما من الحب الذى يمضى إلى ما وراء العقل يمكن العثور على الواقع الأول، فجذور الوجود انما توجد من الحب، وهو قوة توحد الأضداد فى كل جديد خلاق.. هكذا فإن الشاعر يشير إلى أنه فى الحب تلتقى قوى الوجود والعدم، لتلد كل أشياء هذا العالم، لكنه يدرك أن ذلك لايفر أصول الوجود والعدم، وإنما يوضح إنتاجهما المشترك للعالم .

٦- من ذا يعرف حقاً! من ذا الذى يمكنه أن يقول هنا ؟ متى ولد هذا الخلق ! ومن أين جاء ؟ لقد جاءت الآلهة بعد خلق هذا العالم فمن ذا الذى يعرف من أين جاء[1] ؟

٧- ذلك الذى من رحابه جاء الخلق سواء كان يضمه معا أم لا هو الذى يراه فى السماء العلا هو وحده الذى يعرف- أو ربما حتى لا يعرف !

إذن من ذا الذى يعرف هذا الر؟ من ذا الذي يستطيع اختراق لغز الحياة الأساس؟ إن الترنيمة تخننم بالإشارة إلى أنه حتى هو الذى يراه فى السماوات العلا لا يستطيع أن يصل إلي هذه المعرفة، والفكرة التى تتضمنها هى أن الموجودات البشرية يتعين عليها أن تظل منفتحة على هذا السر مشاركة فى عملية التجدد الذاتى التى من خلالها يتحقق الكل غير المنقسم فى الحياة اليومية .

* واكتشاف الواقع هو أحد الإستبصارات العظيمة للفيدا وبحسب "الريتا" أن هذا الواقع الأصلى يعمل بطريقة منظمة على نحو جوهوى،فمكن شعب الفيدا من النظر

(١) هذه المقوله تدل على قدم العالم فى الفكر الفيدى وهذا يعنى أن الآلهة لا تخلق.د.ابراهيم يلسين

إلي أنفسهم باعتبارهم جزءاً من كون محكم النظام وقد وجدوا سبيلاً إلى المشاركة فى التجديد المتواصل للوجود وذلك من خلال المشاركة فى هذا النظام الالهى، من خلال تأدية الطقوس الخاصة بالاحتفال بتقديم القرابين "ياجنا" Yajna.

* اعتبرت نصوص الفيدا نصوص دينية أكثر منها فلسفية وليس التمييز بين الدين والفلسفة بالأمر الهين فالفكر الفلسفى حر من أن يمضى فى أي اتجاه تقوده التجربة اليه دونما قيود مثلما كانت الأجزاء المكبره من نصوص الفيدا فلسفية، ولكن عندما أصبح ينظر إلى هذه الإجابات باعتبارها مطلقة ونهائية فإن المفكرين لم يعودوا أحرار فى مواصلة البحث بل تقيدوا بالإطار الذى أملاه الموقف الذى اعتبر الإجابات السابقة نهائية وحاسمة وهذه الإجابات تحاول الرد على أسئلة شعب الفيدا حول الوجود والعدم، والنظام الكونى المحكم، والنظام الإلهى المشاهد فى الكون .

ومن السمات الأخرى للفكر الفلسفى أنه ناقد لذاته يحتاج إلى دليل وبرهان لأى إجابة مزعومة وهنا يبدو الجانب الأعظم من الفكر الفيدى المبكر مرة أخرى غير فلسفى ذلك أنه لم يطالب بضرورة البرهان لإثبات صحة الدعاوى العديدة التى قامت على أساسها الممارسات الدينية .

الأوبا نيشاد..

هى الأقسام الأخيرة من الفيدا ذات طابع فلسفى أكثر من الأجزاء المتقدمة لأنها تتضمن الحاجة إلى دليل على دعواها كما تعنى بالمبادئ الأساسية للوجود، ومع ذلك لايمكن اعتبارها فلسفية بالمعنى الدقيق لأنها تأخذ من التجربة الشخصية برهان على الحقيقة وبينما يوجد اعتراف عام بأن وجهات النظر المتناقضة لايمكن أن تكون صحيحة فأننا نغالى كثيراً إذا قلنا إن ذلك يعنى أن العقل هو الذى يحدد صدق أو زيف وجهات النظر ذلك أن مبادئ المنطق والعقل لم يثبت نجاحها من الناحية الصورية.

وبالتالى فأن الأوبانيشد تميل إلى أهمية مضمون رؤية الحكيم. فتجربة الحكماء هى التى تقدم البرهان على صدق الدعاوى التى قدمت.

والسؤال الذى تطرحه نصوص الأوبانيشاد هو "ما الطبيعة الحقه للواقع النهائى؟" وهذا يعنى افتراض وجود واقع غير الواقع الذى يظهر لنا وربما يكون واقعاً أسمى ولم يكن البحث منصباً على عالم المكان والزمان الملئ بالأصوات والألوان والروائح أو مايظهر لنا على أنه عالمنا وإنما هو "الشروط" التى تجعل هذا العالم الظاهر أمراً ممكناً. والتمييز بين عالم الواقع وعالم الظاهر مثل تمييز الألوان باعتباره موجودة فعلاً فى الكون ومعروفه بألوان الطيف المختلفة والتى قد يعتقد البعض أنها غير موجودة.

أو أن الألوان ليست موجودة ولكن الموجات الضوئية التى تمر خلال وسط معين هى التى توجدها وهنا نحن نتحدث عن مصادر الشروط..

ولكن حكماء الأوبانيشاد لم يحبوا الشروط الخاصة بمظاهر بعينها وانما كانوا يسعون إلى معرفة ذلك الذى فرض الشروط أو الذى جعل الوجود نفسه أمراً ممكناً. كان الحكماء يبحثون عن الشئ الذى أوجد كل الأشياء الموجودة فى الكون واعطوا اسماً له هو "برهمان" Brahman ذلك الذى يضفى العظمة والبهاء وهو اسماً غير وصفى هو الواقع الخارجى النهائى وقد حالوا معرفته عن طريق الرموز والطقوس الدينية وعن طريق الأشياء الطبيعية مثل الشمس والقمر وكل هذه المحاولات لتحديد ما هية "البرهان" من خلال شئ آخر تفترض مقدماً حدوداً لتلك القوة، ولكن اذا كان مطلقاً فلا يمكن أن يكون مقيداً بشئ وهو الذى ليس وراءه شئ يقيده ولذا كان من الصعب وصفه عن طريق الخبرة بعالم الظواهر، ووجدوا انه يمكن وصفه عن طريق السلب لأنه من المستحيل فى نظرهم أن يكون مقيداً بصفة من الصفات لذلك فلا يمكن وصفه عن طريق الالتجاء إلى الخبرة [(١)] .

ويقول "ياجنا فاكا فى أوبينشاد برهادارانياكا" ان براهمان لاسبيل إلى تصوره فهو لايتغير ولايناله أذى ولايمكن إدراكه، وجاء فى أوبنيشاد كاثا" ان براهمان لاسبيل

(١) راجع الفكر الشرقى القديم ، ص ٥٤ ، ٥٥.

إلى سماعه ولا رؤيته أو تذوقه ولاشمة وهو بلا بداية ولا نهاية واعظم من العظيم.

وفى أوبنيشاد مونداكا" وصف بأنه .. لاسبيل إلى رؤيته أو الإحاطة به لاشكل له ولالون، بلا عين ولاأذن وبلا أيد ولاأقدام، يتخلل كل شئ وهو كل الوجود، أنه الواحد الذى لا يتغير الذى ينظر إليه الحكماء باعتباره مصدراً للموجودات".

* بعد النظر إلى براهمان باعتباره ذلك الذى يجعل الزمان والمكان والسببية رموزا ممكنة، كان من المستحيل النظر إليه على أنه يتقيد به، فكونه سابقا للزمان والمكان والسببة يعنى كونه متجاوزاً لخصائص الكون التجريبى ومن ثم متجاوزاً للوصف الايجابى ومع ذلك تظل طبيعة البراهمان مراوغة وغامضة .

* ماذا عساى أن اكون فى أعمق وجود لى ؟

وهذا سؤال حول شروط الظاهر وليس حول الظاهر نفسه وهذا السؤال يفترض مسبقاً أن الذات شئ يفوق ما تراه العين ذلك وأن الكيان الجسدى ليس مراوغاً أوغامضاً. ليس هناك شك فى أن التمييز بين ما تبدو عليه الذات وماهي عليه حقاً قد إفترضه مفكروا والأوبابينشاد ولقد استرشد بحثهم عن الماهية العميقة للانسان بهذه الوصية :-

"إن الذات" أتمان" المتحررة من الشر، والمتحررة من الشيخوخة والمتحررة من الموت والمتحررة من الخوف والمتحررة من الجوع والظمأ، والتى تبررُ الواقعى والتى يواكب الحق أفكارها، ينبغى أن يسعى إليها من يرغب فى الفهم ومن يتعرف على هذه الذات ويتفهمها يظفر بكل العوالم والرغبات" .

والباحث [١] يلاحظ أن هذا الوصف السلبى لبراهمان، وهذا الغموض والبهاء الذى تطلقه الفيدا والأوبنيشا على الألوهية أشبه بالتصور الإسلامى فى قوله جل شأنه

(١) بالطبع تختلف فكرة الألوهيه فى الفيدا عنها فى الإسلام من حيث أن الله عند الفيدا ليس خالقا للعالم . أ.د إبراهيم يلسين

«قل هو الله أحد .. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»(سورة الإخلاص) كذلك حاول فلاسفة المسلمين وصف الألوهية عن طريق الصفات السلبية، وكانت البوذية قد أكدت على هذا الوصف السلبى فى اعتادهم أنه .. اللامولود [1] Unborn اللامتشكل Unformed ، الذى لم يشترك معه أحد Unorignated .

لقد كان السؤال "ما تلك الذات العجيبة والغامضة ؟

فى "أوبانيشاد تايتيريا" اذا كان من المعتقد أن الذات هى الجسد فمن الممكن أن نقول أن الذات هى الطعام أو الحياة المستمدة من الطعام ولكن هذا يفيد فى تمييز المادة الحية من المادة الجامدة. فالشخص يزيد من كونه طعاماً وهى تفوق ذلك إنها حياه، والذات ترى وتسمع وتحس إلخ ... ومن الأجدر النظر إليها من خلال مفاهيم العقل والإدراك ولكن بدا هذا غير مناسب ذلك أن التفكير والفهم يتعلقان اكثر ملاءمة بالذات منها بالادراك، وذلك أنه لابد أن يكون هناك من يمنح الوجود للتفكير والفهم وكما تقول الأوبانيشاد "مختلفة عن ذلك الذى يتألف من الفهم وقائمة فى أغواره هى الذات المباركة"في "أوبانيشاد كينا" يتخذ البحث من الذات المطلقة صورة السعى وراء الفاعل النهائي أو القائم بالنشاط الانسانى ويطرح السؤال التالى: بمشيئة من وتوجيهه يشرف العقل على موضوعاته؟ بأمر من تتحرك الحياة الأولى! بمشيئة من يتفوه البشر بهذا الحديث؟ وأى إله ذلك يستحث العين والأذن؟ إنه يوجد حيث لاتعمل العين، ولا يعملا الكلام، ولا الذهن يمكن للمرء أن يعلم أن الذات المطلقة هى الفاعل المطلق.

انها الذات التى تحرك كل الكيان الانسانى إلي أداء وظائفة وهى بخلاف المعروف والمجهول. ولكن الذات المطلقة هى الفاعل المطلق وبالتالى لا تكون موضوعاً للمعرفة وتجاوز العرفة العادية ويمكن إدراكها على أنها الوعى الذاتى الكلى حيث يقف العارف وقد أضاءه نوره الخاص وهكذا فعلى الرغم من عدم معرفتها إلا أنها متصلة بالتجربة المباشرة ويمكن معرفتها على نحو عميق وكامل من تجربة الوعى الذاتى الكلى

(١) راجع استكشاف البوذية لكريسماس هيمفرى، ترجمة د. إبراهيم ياسين.

وبهذا المعنى فأنها تعرف على نحو أكثر يقينيه واكمتالا من أى موضوع للمعرفة وهذا هو يعُين وجود المرء الذى يتجاوز أى شك أو تساؤل .

برجباتى يعلم أندرا ....

يقدم البحث عن الذات المطلقة فى "أوبانيشاد تشاند وجايا" فى صورة معينة يقوم فيها برجباتى "الذى يمثل قوى الكون الخلاقه" بتعليم أندرا "الذى يمثل الألهة" وفيروكانا""الذى يمثل الشياطين" فيما وراء حكمة المعلم الروحى Guru على مدار اثنين وثلاثين عاماً وذلك من خلال التزامها بضبط النفس . ويخبرهم فى نهاية هذه المدة بأن الذات هى ما يرونه عندما ينظران إلى انعكاسهما فى المرآة أو صفحة الماء فنظرا وشاهدا صورتهما العضوية وقد اكتستا بالملابس وقد ابتهج "فيروكانا" بهذه المعرفة فيعود إلى عالم الشياطين ويعلم أن الجسم هو الذات وهكذا تكون تعاليم الشياطين!.

ولكن أندرا لم يقتنع بأن النفس "الذات" هى الجسد فهى تفنى مع فناء الجسد، فيعود ويسأل برجباتى ثانية عن النفس فيقول له برجباتى "أن النفس الحالمة هى النفس الحقيقية" ولكن أندرا لا يقتنع فعلى الرغم من أن **النفس الحالمة** تبعد عن الجسد إلا أنها أحيانا عرضة للألم والمعاناة والدمار، فيعود ويسأل عن النفس الحقيقية وفى هذه المره يقال له "أن **النفس الغافية** التى تجاوز الأحلام هى النفس الحقيقية" ويقتنع أندرا فى البداية لكنه يعود ولا يقتنع لأن النفس الغافية لا تعى نفسها.

فعلى الرغم من أن النفس الغافية تجاوزالأحلام وليست عرضه للألم فهى ليست الذات الحقيقية ...... ويظل أندرا[١] يسأل ويسأل عن النفس المطلقة ويحدثه برجباتى بأن النفس التى يجرى السعى ورائها تتجاوز كل النفوس التى تم النظر فيها حتى الآن حقاً هناك النفس العضوية التى يعتقد البعض أنها النفس الوحيدة، وهناك النفس التى هى الذات التى تعايش الأحلام وهى نفس يعترف بها البعض، وهناك نفس

(١) ينشد أندرا المعرفة الأسمى بارا فيديا Paravidya بممارسة الانضباط النفسى لأكثر من مائة عام لأنه يسعى وراء النفس السامية التى تتجاوز كل النفوس. راجع الفكر الشرقى القديم، ص٥٨ واستكشاف البوذية ترجمة الدكتور/ إبراهيم ياسين (النفس واللانفس.

تعايش الإغفاء والإ فإن الاغفاء سيكون هو والموت سواء، ولكن النفس الأسمى تتجاوز هذه النفوس كلها، أنها نفس تجعل تجربة اليقظة ونفس تجربة الحلم ونفس الإغفاء رموزاً ممكنة، وتلك النفوس لا تعدو أن تكون أدوات للنفس الأسمى، التى هي مصدر وجودها ذاته .

والحالة التى يدرك فيها النفس المطلقة التى تمنح الوجود لنفوس الشخص المستيقظ والحالم والغا فى يطلق عليها احيانا اسم "تورايا" أو الحالة الرابعة وعلى العكس من وافق الاغفاءة تكون هذه الحالة "تورايا" قوامها الوعى الذاتى الكلى والاستنارة ويقال فى أوبانيشاد بريهادارانياكا عندما يمضى المرء للندم فإنه بأخذ معه مادة هذا العالم الذى يحوى كل شئ ويمزقها بنفسه إربا ويشيد صرحها بنفسه ويحلم من خلال سطوعه من خلال سناه وعندئذ يصبح هذا الشخص منيرا بنفسه .

ويستحيل فى هذه الحالة الرابعة "تورايا" افتراض ثنائية الذات والموضوع والعارف والمعروف، هذه الأوبانيشاد تواصل قولها " الواقع أنه على حين أنه لم يعرف شيئاً هناك" فإنه فى الواقع يعرف رغم أنه لا يعرف "ما يعرف عادة" ذلك أنه لا توقف لمعرفة العارف بسبب عدم قابليته للفناء "باعتباره عارفاً" غير أنه ليس شيئاً آخر غير ذاته ومنفصلاً عنها ذلك الذى يعرف .

وهكذا فإن الاوبانيشاد تجيب على السؤال ماذا عساى أن اكون فى أعمق وجودى؟ بأن أساس الوجود ذاته هو الوعى الذى يعنى ذاته .والذى يمكن للشخص أن يخبره مباشرة عندما يجاوز التوحد مع النفس الزائفة للعالم المتموضع ومن المهم بصورة بالغة أن النفس المطلقة "أتمان" يمكن معرفتها مباشرة وفى الحال باعتبارها مسألة تجربة مباشرة، ذلك أنه هاهنا لا يمكن أن توجد شكوك أو تأرجح لليقين وهذه إجابة تنتج لدى إدراكها الرضا التام للفرد .

ولاكتشاف "أتمان"[١] أهميته من وجه آخر فحكماء نصوص الأوبانيشاد الذين كانوا يسعون وراء كل من الواقع الخارجى المطلق "براهمان" والواقع الداخلى المطلق "أتمان" وصلوا إلى الاستفسار عن العلاقات والصلات بين هذين الواقعين :-

والإكتشاف المثير الذى وصلوا إليه الآن هو أن "أتمان" ليس إلا "براهمان" فهناك واقع مطلق واحد يمكن الدنومنه إما من خلال النظر إلى خارج نفس المرء أو بالنظر فى أعماق نفسه وهكذا فإنه على الرغم من أن بحث طبيعة الواقع الخارجى "براهمان" قد بدا أنه انتهى بالاحباط بسبب استحاله قول أى شئ من الموضوع المطلق، فقد تحقق الآن أن براهمان" يمكن أن يعرف من خلال التجربة التى تؤكد نفسها فى تجربة الاستنارة الواعيه الكلية، لأن براهمان هو الذات المطلقة فلا فارق بين الذات المطلقة والموضوع المطلق، والواقع الذاتى المطلق والواقع الموضوعى المطلق فهما شئ واحد ومن الصعب اكتشاف أكثر إناره من ذلك ففى غمار السعى لفهم الطبيعة المطلقة للعالم والنفس ثم اكتشاف أن كل الأشياء موجودة داخل "أتمان" وأن كل شخص يحتوى كل الأشياء فى داخل النفس الأكثر عمقاً وما على المرء سوى أن يعرف نفسه لكى يعرف كل شئ، والنفس يمكن أن تعرف بأكثر الطرق تعينية، فهى يمكن أن تتجلى عندما يتم تجاوز موضوعات الوعى التى تحول دون الاستنارة الذاتية .

أرباب البيوت الخمسة ومحاولة التعرف على النفس الكلية.

إجتمع أرباب البيوت الخمسة براسينشالا أو بامانيافا، وساثيا باحثاً بولسي، وأندرا دايمنا بها لاميا، وجاناشاركار كسايا، وبوديلا أشفتا راشفى - وهم الأرباب المعروفة بالحكمة التى اجتمعت لكي تبحث عن ماهية النفس وماهية براك مان واتفقوا على أن أودا لاكا أرونى Uddalaka Aruni هو الذى يستطيع الإجابة لأنه عاكف

(١) الحالة التى يدرك فيها المرء الذات المطلقة يطبق عليها مصطلح Turiya توريا وهى الحالة قوامها الوعى الذاتى الكلى - فعندما يغيب الوعى فى النوم يمزق العارف مادة العالم التى أخذها معه ثم يعيد بناءها مرة أخرى من خلال معرفته الجديدة التى إستضاءت بنور المستنير.

على دراسة الذات الكلية، لكن (أودا لاكا) أرسلهم إلى (أشفا باكى كايكا) وعندما واجهوه سألوه - ما النفس الكلية أجاب أشفاياتى كايكا - أحدكم يعتقد أن السماء هى النفس الكلية، وأحدكم يعتقد أن الشمس هى النفس الكلية وآخر يعتقد أن المكان هى النفس الكلية ويراها بعضكم فى المكان أو الهواء أو الماء أما (أودا لاكا) فقد بحث عنها فى الأرض وهذا يعنى أنكم تبحثون عن نفوس كثيرة وليس نفس واحدة - لكن (أشفاباتى كايكايا) يرى أن النفس الكلية كامنة فى كل شخص تقول أبونيشاد تشاتدوجيا على لسان شاتديلايا «حقاً إن هذا العالم هو براهمان وهو يضم جميع الأعمال والرغبات والروائح، وما يحيط بهذا العالم بأسرة إنما هى نفس (أتمان) فى قلبى إنها براهمان، إن تعدد الأشياء فى هذا العالم ليس إلا مظهراً خادعاً يخضى هو الجوهر الخفى فى العالم باعتبار ذاته أو نفسه أثمان هو الحق (وبراهمان) مصدر كل الوجود وهو جوهر خفى مراوغ يشير إلى النفس الكامنة فى جميع الأشياء وهى التى ترى رائى الرؤية وتسمع سامع السمع، وتفكر فى مفكر التفكير - انها الذات المطلقة والنفس الكلية.

الذات المطلقة لا توصف إنها اللامولود واللامتشكل، والذى لا يمكن معرفته، وربما تكون (براهمان). وهو سابق على المكان والزمان والسببية إنه المتحرر من الموت والشيخوخة والجوع والظمأ .
ومن الغريب أن النفس المطلقة لها من الصفات ما يجعلها أشبة بالذات المطلقة وإذا كانت النفس هى أتمان فإن أتمان هو براهمان مما يؤكد أن الواقع المطلق واحد (فلا فارق بين الذات المطلقة والموضوع المطلق) د. إبراهيم يلسين

التأليه النفس والعالم : السامخايا - اليوجا

تقديم :

لابد من افتراض وجود علاقة بين النفس التجريبية ذات الكيان .الإجتماعى والذات المطلقة من أجل أن يكون هناك أمل لعبور تلك الفجوة بين النفس التجريبية والأتمان،[1] Atman ولتركيز نصوص الأوبنيشاد على الأتمان والوصول إليه تركت دون أن تدرى تحليل اللاأتمان ولهذا اهتمت الفسلفات المتقدمة ببحث ودراسة طبيعة العلاقة بين المطلق والتجريبى أو بين ما تطلق عليه فلسفه الدين- الله والعالم. والسؤال الذى يفرض نفسه الآن :

كيف يمكن للمرء أن يكون نفساً من لحم ودم ورغبات وعادات ويكون أيضاً الأتمان «الذات المطلقة» الذى لا يتغير مع الواقع المطلق للكون ؟

المبحث الأول

(١) الذات والموضوع :

ركزت مدرسة السامخايا علي تلك الأجزاء فى نصوص الأوبنيشاد التي تشدد على واقعية اللاأتمان أو اللابراهمان وفى أحد النصوص يقال أن براهمان قد خلق الكون ودخل فيه ومعني دخوله فيه أى أنه أصبح موضوعات وأشياء وعلى هذا يقاس العالم أنه عالم واقعى بقدر واقعية البراهمان .

وفى أوبانيشاد بريهاد درانياكا يقال أن الأتمان قد دخلت إلى الكون حتى أطراف الأصابع، أى كل موضوعات وأشياء العالم مكونه من الأتمان حيث أنها موضوع كما أنها ذات فى البداية وموضوع عندما دخلت إلى الكون وكأننا بصدد مذهب فى وحدة الوجود .

(1) Atman تعنى النفس No Atman تعنى اللانفس see Exploring Buddhism, Atman and no aTman , self or no self .

وتشير الفقرة السابقة إلى واقعين أساسيين :-

واقع البراهمان، وواقع العالم الموضوعى الذى يضم الذوات والأشياء التجريبية .

وكما سبق أن قلنا أن الميل فى الغالب فى نصوص الأوبانيشاد هو النظر إلي البرهمان باعتباره أكثر واقعية من العالم التجريبى أو الموضوعى .

ولكن لكى تقوم بأى دراسة للواقع التجريبى والموضوعى لابد أن ننظر أيضاً إلي الذات التجريبية على أنها أيضاً واقعية مثلها مثل الموضوعى أو البرهمان .

وبالعودة إلى مدرسة السامخايا نجد أنها استمدت واقعية العالم من بعض نصوص الأوبانيشاد مع أساس ملاحظات واقعية معينة. وعلى هذا فقد اكدت الحاجه إلى القيام بمزيد من العناية بتحليل العلاقة بين الواقع التجريبى والواقع المطلق .

ولقد نشأت الحاجة الملموسة إلي العلاقة بين الواقع التجريبى والمطلق على اعتبارين :-

١- أن تحقيق الأتمان من شأنه أن يجلب نهاية المعاناة ونحن نريد أن تنتهي معاناتنا فيلزم معرفة الطريق إلى الأتمان من خلال الواقع التجريبى للوصول إلي نهاية تلك المعاناة .

ويقول كرشنا "من العذاب ينشأ البحث عن سبل انهاء هذا الألم وهذا العذاب" [(١)] .

٢- يكمن فى الواقع الأنسانى التى تسعى دائماً إلى المعرفة وإلى جعل كل التجارب الانسانية قابلة للفهم من خلال عرض علاقات معينة كامنة فى هذه التجارب.

* ومن خلال تركيز الإنتباه على المعرفة الإنسانية العادية بما تحمل من رغبات ومشاعر وفكر هى نفسها العالم المعلوم بما يحمل من ألوان وأصوات وروائح .. الخ .

وهذه هى صورة العالم الذى يمكن معايشته من حيث المبدأ والنفس التى هى دائما المعايش .

(١) راجع الفكر الشرقى القديم : النفس والعالم .

ولسوف يبدو أن والذات المطلقة هى من طبيعة ونظام مختلفين عن العالم حيث أن ما هو ذات مطلقة لا يمكن أن يصبح موضوعاً وما هو موضوع لا يمكن أن يكون ذات مطلقه والفارق بين النفس والعالم هو بصورة جوهريه الفارق بين الذات والموضوع .

ولكى نقوم بتحليل العالم من خلال تجربه لابد أن تكون مكانه على خبرة النفس والعالم المتاح للتحليل وستكشف نفس عارفه وعالم متغير وكل ما يجرى فى هذا العالم ذات طبيعة واحده بصفة جوهرية ومختلف عن الذات المطلقة التى تمر بهذه التجربة.

ولولا أن هناك افتراض بإن الذات تدخل العالم حتى أطراف الأصابع لبدأ وكان نصوص السامخايا تميل إلى الوصف التجريدى السلبى للألوهية- بحيث يصبح المطلق موصوفا بصفات سلبية- يعنى أشبه بالتنزيه والتشبيه كما قدمنا.

المبحث الثانى

(٢) السببية ..

كل التغيرات التى تحدث فى العالم لها أسبابها سواء كانت موجودة أو سوف توجد، ولهذا نقول أن المعرفة البشرية لابد أن تكون لها أسبابها بإفتراض أننا قد توصلنا من خلال مبحث الذات والموضوع إلى أن المعرفة الانسانيه هي طبيعة العالم العادى .

وبوجود تلك الأسباب يلزم عنها نتائج مستمدة من الأسباب وعلى هذا لابد وأن تكون النتيجة المستمدة من أسباب المعرفة البشرية شبيهة علي نحو جوهري بالعالم الذى تجري معرفته، ومعرفة العالم تأتى من خلال الخبرات والمعايشات ومن هنا يأتى القول أن الخبرة وما ينتج عنها هما شئ واحد .

- وتسمى نظرية السببية في مدرسة السامخايا "ساتكارايفادا" Satkaryavada وهى تعنى أن النتيجة موجودة مسبقاً فى السبب معنى هذا أن

النتيجة لا تقدم أى واقع جديد وذلك أن الأمر أن نجعل ما هو موجود بالفعل بصورة ضمنية صريحاً ومعلناً .

* ويختصر "كرشنا" نظرية "السامخايا" عن طبيعة السببية عندما يقول:- "أن النتيجة موجودة مسبقاً :- لماذا.؟

- لأن ما ليس بموجود لا يمكن أن يتم إنتاجه
- لأن هناك علاقة محددة بين السبب والنتيجة
- لأن الكل ليس ممكناً .
- لأن الكفء لا يمكن أن يقوم إلا بما هو كفء له
- لأن السبب هو من جوهر السبب نفسه (١).

وحينما نقول أن النتائج موجودة من واقع عدم امكان نفى النتيجة إلا إذا نفى السبب، وعدم وجود نتائج حقيقية يعنى أنه لا يوجد أسباب حقيقية وأيضاً الواقعية للسبب والنتيجة فإذا أردنا نفى السبب سننفى النتيجة وفى هذا الحالة فإننا ننفى نقطة البدء أو ننفى الموضوع من الوجود أساساً وبالتالى فإن وجود النتائج لا يمكن نفيه .

- النتيجة تنتمى إلى جوهر السبب يدل على أن الواقع الموضوعى اذا حللناه سيأتى فى النهاية بنفس الطبيعة وذلك أن الواقع الموضوعي هو نتيجة تحولات مختلفة لمادة واحده نهائية.

اعتراضات على نظرية السببية لمدرسة السامخايا :-

- النتيجة هى كل جديد مختلف عن الأجزاء المكونة وليس تحولاً لها وذلك لأن ما من نتيجة يمكن معرفتها قبل أن تحدث فعلاً واذا كان سببها هو نفسه النتيجة فكان الأولى أن نعرف تلك النتيجة بمعرفة السبب .

(١) الفكر الشرقى و ص٨٨.

رد مدرسة السامخايا:- لا معني للقول بأن النتيجة لا تسكن الأسباب المؤدية اليها فمثلاً المائدة وقطع الخشب المسببة للمائدة فهل يمكن أن تتصور المائدة مستقلة عن أجزائها ترى السامخايا أن تصور وجود مائدة يمكن أن يتم من خلال وجود أجزئها .

فالسبب والنتيجة ليسا منفصلان وانما النتيجة ما هي إلا تصور للسبب فى حالة التحول فالسببية ليست انتاجاً لشيئ جديد إنما هى حالة تحول.

وهناك رد آخر على القول بأن السبب والنتيجة منفصلان وذلك من خلال حقيقة ما من شئ يمكن أن يستحدث من سبب لم يكن موجوداً فيه ومثال ذلك "الخثارة" من اللبن لأنها موجودة مسبقاً في اللبن، فهل يمكن الحصول على الحديد من الماء .

- الذهاب إلى القول بأن السببية هى مسألة تحول فأين دور السبب الفعال لحدوث هذه النتيجة طالما كانت النتيجة موجودة بالفعل .

والرد على هذا وهو أن الفاعل أو السبب الفعال يظهر أو يعلن ما كان متضمناً وغير ظاهر ولا يخلق شئ جديد فاذا كان الوضع هو أن أسباباً معينة تؤدى إلى نتائج معينة .

∴ فبعض الأسباب فعاله بالنسبة لبعض النتائج ولكنها ليست كذلك للبعض الآخر وهذا يوضح أن النتيجة توجد مسبقاً فى السبب، وأن رد الفعل هو شكل اخر من أشكال الفعل .

- والحديث عن التحول هو تحديد لمفهوم السببية بمعنى استحداث موضوعات جديدة واعادة إلى صورته الأولى .

والرد على هذا الاعتراض- التحول ليس له علاقة بتوقف صفات كانت موجودة من قبل ولا بتكوين آخرى كانت معدومة من قبل وانما التحول هو ظهور خاصيه كانت موجودة على نحو ضمنى فى الجوهر وبالمقابل تراجع خاصية ظاهرة إلى وضع غير ظاهر

ولحسم القضية يذهب فلاسفة السامخايا إلى القول بأن تصور الامكان السببى، فالا يعنى أن اللا وجود واللاكينونة لا يقتضى سبباً، فعدم وجود نتيجة لا يمكن أن تثار أسباب حدوثها.

* هذه الحجج لكى تؤيد الزعم بأن الأسباب والنتائج هى فى جوهرها من طبيعة واحدة والسبب هنا ينظر إليه بمعنى السبب المادى أى المادة التى يستحدث منها شئ ما

المبحث الثالث

(٣) تطور العالم ..

وصلنا في المبحث السابق أن النتيجة توجد مسبقاً بالضرورة في السبب وذلك في رأي فلاسفة مدرسة "السامخايا" ولهذا كان لابد من سبب وجود العالم كنتيجة وفى داخل السبب يسكن العالم نفسه ووصلوا إلى أن العالم الراهن وجد نتيجة لتغيرات سابقة وليس بشئ جديد جاء من فراغ أي بدون أسباب أدت لهذه النتيجة، وبالطبع هذه النتيجة لا متناهية فلابد أن تكون من سبب أيضاً مطلقاً تنشأ عنه نتيجة لا متناهية وينبع من ذلك أن عالم التجربة هو من الطبيعة الأساسية ذاتها التى ينتمى إليها هذا السبب المادى المطلق أو ما يطلق عليه "البراكريتى" Prakriti تولد من هذه النتيجة تساؤل :

كيف يخرج من عالم التجربة المتكثر من خلال سلاسل من التحولات من هذا الواقع الأساسى المسمى بالبراكريتى ؟

النتائج توجد مسبقاً فى السبب البراكريتي سبب وجود العالم

العالم أشياء متغيرة الخصائص كالميل إلى القصور الذاتى، والاتجاه إلى الحركة والفعل ورد الفعل .

ومن هذه الخصائص :

- الساتفا "Sativa" وهو المسئول عن التجلى الذاتى والحفاظ الذاتى الخاص بالبراكريتى [١] .
- الراجاس "Rajas" وهو المسئول عن الحركة والفعل [٢] .
- التاماس "Tamas" وهو الميل إلى القصور الذاتى [٣].

وباشتراك هذه المكونات بنسب متفاوتة تؤدى إلى تنوع الأشياء وتفسر كل ما فى العالم من تنوع . اذن فهى تكون العالم ولكن ما الذى أدى إلى تطور العالم أو البراكريتى؟ من المنطقى أن نفترض أن العالم مر بحالة من التوازن والثبات وبعد ذلك تغيرت النزعات والميول مما أدى إلى هذا التطور يطلق عليه اسم "بوروشا" "purusha" أو الروح باعتبارها الذات المطلقة والوعى الخالص وهو فى السامخايا اللا أتمان أو البراهمان فى الأوبانيشاد Purusha .

- الحجج التى قدمها "كرشنا" لوجود "البوروشا" :-

(أ) لأن كل العناصر المركبة من أجل أن يستخدمها الآخر .

(ب) لأنه يتعين أن يكون هناك غياب للسمات الثلاث وللخواص الأخري .

(ج) تقوم الحجتان علي أن كل الموضوعات تتكون من أجزاء من أجل خدمة الموضوعات والكائنات الأخري وإن لم يكن ذلك أى وجود شئ لا يتألف من أجزاء من أجله توجد تلك الأشياء المؤلفة من أجزاء وهذا الشئ الذى لا يتألف من أجزاء هو البوروشا ليستخدم ذلك البراكريتى المتآلف من أجزاء .

(د) يتحتم وجود عملية ضبط من خلال عقل مدرك لتلك الأشياء ليستطيع تنظيم العالم على ما هو عليه وهو متمثل من "البوروشا" .

---

١ ، ٢ ، ٣، راجع الفكر الشرقى القديم، ص٩٣.

(هـ) ينبغى أن يكون هناك من يقوم بالتجربة .

فمن وجهة النظر السيكولوجية فإن موضوعات العالم تنتمى إلى طبيعة اللذه أو الألم أو اللامبالاة ولكن اللذة والألم لا يمكن أن يوجدا دون من يقوم بالتجربة، ومن هنا لابد من وجود "البوروشا" كمبدأ لمن يقوم بالتجربة .

(و) هناك ميلاً للإنعزال أو الطبقة النهائية .

مما يدعى إلى وجود البوروشا بسبب الرغبة فى علو الذات وهناك من تجاوزوا عالم البراكريتى وهؤلاء لا يحتاجون إلى حجج على وجود "البوروشا" .

* كيف تستطيع النفس التجريبية إدراك البوروشا فى داخلها ؟

الحكمة هى التى تطلق البوروشا وتحررها من البراكريتى واذا كانت البراكريتى يتحكم فى البوروشا فإن من العبث القول بأن البوروشا مختلف تماماً عن البراكريتى ومستقل عنه ولكن مدسة السامخايا ترى أن العلاقة بينهما تجد أساساً فى الجهل وفى الجهل يتم الخلط بين البوروشا والبراكريتى .

- ولكن كيف تؤدى الرابطة الوهمية بينهما إلى تطور حقيقى للبراكريتى ؟

البوروشا نور ساطع. والبراكريتى بحيرة ماء تعكس ذلك النور وهذا الانعكاس مع سطح البراكريتى ينعكس على ذاته فإنه ينتمى إلى البراكريتى ويغيب البوروشا عن النظر ويصبح البراكريتى هو الواقع المطلق، وبسبب هذا الخطأ لا يتم التميز بين البراكريتى والبوروشا .

وينظر إلى الاضاءة الأولى للبراكريتى من قبل البوروشا على أنها "بوذى" Buddhi أو "ماهات" Mahat أى العظيم وعندما يصبح هذا الانعكاس واعيا

---

* البراكريتى * تشير إلى المادة أو الواقع المطلق (الإضاءة الأولى للبورشا) .
* البورشا * هى الروح الحقيقى وهى انعكاس النور على سطح المادة البراكريتى.
* آها مكارا * صانع الأنا والمسئول عن التفرد فى الطبيعة .

بذاته فهو صانع الانا" أو "أهامكارا" Ahamakra المسئول عن التفرد فى الطبيعة .

ومن هذا التطور يخرج الذهن وكذلك أعضاء الحس وأعضاء الفعل وجواهر الأشياء وتنشأ موضوعات العالم الجامدة وعلى هذا النحو تفسر مدرسة السامخايا أصل الواقع المعيش كله .

اليوجا : Yoga

تقدم العلاقة السابقة بين البراكريتى والبورشا ، أى الروح والمادة أفضل أساليب ضبط النفس المعروفة Yoga ، وممارسة أساليب اليوجا ضرورية لتحقيق الحكمة .

لكن كيف يمكن تحقيق الحكمة التي من خلالها يتم إدراك البورشا أو الذات الخالصة على نحو ما هى عليه ؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب أن نعلم أنه عندما تتحقق الحكمة فلا يبقى أثر للمعاناة إذ لا تعود الروح أو البورشا مرتبطة بالمادة أو البراكريتى وإذن فلا علاقة للآلام التى تسببها المادة بالروح كما لا يمكنها أن تسبب المعاناه . أما كيف تفسر العلاقة بين الروح والمادة عن الألم والمعاناه فيظهر فى تصورنا لجهاز عرض سينمائى محاط بكل أجهزة الصوت والصورة الحديثة ويظهر فى العرض شخص يتم إنتشاله من البحر ورفعة فى الهواء إلى قمة صخرة عالية ثم يهوى ليرتطم بالصخور عند السفح ويتكرر هذا المشهد عدة مرات فيتقمص المشاهد شخصية الضحية فى هذا المصير المؤلم فيبدأ فى معاناه الألم الرهيب ولا يتحرر منه إلا عندما يدرك أنه يشاهد مادة فلمية ليست خاصة به هو أو بذاته .

* قوى البراكريتى والجهل

١- هناك قوة الجهل أو الأفيديا Avidya وهى تلك القوة التى تعنى أن هناك غياب لإدراك أن الذات تنتمى إلى طبيعة البورشا أو الروح، وليس إلى طبيعة

البراكريتى (المادة). ولأن الذات تعتقد أنها متحدة مع المادة، فإن النفس تظل تحاول الحفاظ على وجودها باعتبارها من ذلك الكيان المادى، متناسية أنها فى النهاية من طبيعة الوعى الخالص .

٢- هناك قوة النفس المتجسده، أو قوة الأنا Asmita وهى تمثل إرادة النقاء كموجود نفسي عضوى وهى التى تحرص على أن تحول كل شيئ إلى كيان ينتمى للأنا وليس للآخر .

٣- وأما القوة الثالثة، قوة الإفتتان بالأشياء Raga وهى قوة التعلق بموضوعات التجربة والتعلق بكل خبرة تبعث على اللذه .

٤- وأما القوة الرابعة Devesa فهى على النقيض من قوة Raga أو الإفتتان بالأشياء لأنها تمثل القوة التى تكره الذات التجريبية Parakriti، وهى تحدث تأثيرها من خلال المقت والكراهية وكلا قوتى التشبث والتعلق من ناحية نتركان العابد اليوجى فى حالة من العذاب المستمر.

٥- وأما القوة الخامسة فهى تمثل إرادة الحياة للأبد Abhinivesa وهى قوة أكثر عمقاً من المقت والارتباط لأنها تمثل إرادة الخلود النفسى والعضوى وهذه القوى الخمسة هى التى تجسد تقلبات الذهن وتغيراتة. لذلك لابد من فهمها كى يصبح وعى اليوجى صافيا .

* أوامر أخلاقية يتبعها العابد اليوجى:

هناك مجموعة من الضوابط الأخلاقية التى تتبعها اليوجا، والهدف منها إعادة توجية وإصلاح إرادة الشخص وأعمالة- وهذه الضوابط تعرف بالياما Yama .

أولاً : Ahimsa إن اليوجا الأخلاقية لابد أن ترتبط باشفاق مفعم بقوى التعاطف حيال الآخرين بدلا من التصرف تحت قيود (الأنا العمياء) التى تمتلئ بالكراهية والمقت .

ويسمى هذا الكابح أو الضابط الأخلاقى الأولى أهمسا (Ahimsa) أو (اللا أذى) التى تستبعد كل الأعمال القائمة على الكراهية والأذى فهى تعبر عن الحب المفعم بالتعاطف وتحاول إستخدامة للتخلص من نوازع الأنانية والفردانية .

ثانياً : الضابط الثانى متعلق بالتخلص من النوايا الشريرة تجاه الأخرين وتجنب الثرثرة، والحديث الأجوف، وكذلك الغيبة والنميمة .

ثالثاً : الضابط الثالث يتعلق بكبح جماح النفس التى ترغب فى تملك ما يمتلكة الآخرين، بل تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك حيث تذهب إلى السيطرة على الحالة الذهنية المؤدية إلى هذه الرغبة فى السطو على ما يملكة الأخرين .

رابعاً : عدم التشبث أو التمسك بالحظر المفروض على السرقة لأنه من وجهة نظر اليوجا فإن الرغبة فى السرقة تحوى الرغبة فى إمتلاك بعض الخيرات، والقضاء على هذه الرغبة قد يحوى القضاء على الرغبة فى الملكية المشروعة مع ملاحظة أن مبدأ الملكية نفسه يحوى مبدأ الطمع والإنسان يملك هذه الرغبة فى الملكية ومن ثم الطمع والقضاء على هذا الدافع يعنى القضاء على رغبة الإنسان فى تملك أى شيئ أو قبول أى شيئ حتى ولو كان هدية صغيرة .

خامساً : وهذا الضابط موجه لكبح حجاح النشاط الجنسى لأنه يشكل عائقا أمام الوعى بالذات وهو يمثل لممارس اليوجا نوعا من العبودية، لذلك فإن إلتزام العفة هو أحد أهم الضوابط الباعثه على الوعى بالذات .

وتأتى بعد ذلك الضوابط الروحية المسماه عندهم نياما Niyama أو دفع المرء باتجاه أكثر روحانية .

١- ومن هذه القواعد أن اليوجى ينبغى أن يرضى بما لديه مهما كان ضيئلا .

٢- ومن هذه القواعد أيضاً الحرص على القيام بالتطهر بالقرابين والأضحيات كى يحقق النقاء الداخلى .

٣- والقاعدة الثالثة تتمثل فى الإلتزام بالزهد والتقشف أو كبح جماح النفس، والسيطرة على شهواتها .

٤- ولقاعدة الرابعة هو التعلق بنصوص الفيدا التى تدور حول اليوجا وأهمها تعاليم التحرر والخلاص من المادة وممارسة هذه التعاليم .

٥- والضابط الخامس مكرس لإقامة الشعائر لواحد أو أكثر من الأرباب، وهو موقف يشير إلى خدمة قوى الكون الأعظم ومحاولة قهر الأنا .

وعندما يستقر الدارس اليوجى فى إنضباطة الروحى يصبح قادرا على أداء التدريبات وأداء الأوضاع Asanas التى يراد بها تحقيق إنضباط الجسد والسيطرة عليه الأمر الذى يؤدى للسيطرة على الوعىّ والسيطرة على الأنشطة النفسية والعضوية وهو هدف اليوجا الأسمى .

---

* هدف اليوجا هو القيام بعملية الضبط المنظم للنفس وتخليصها من قيود الأنا العمياء، كما أنها وسيلة للتوازن الضرورى بين البراكريتى (المادة) والبورشا (الروح) د. إبراهيم ياسين .

تطورات التأليه والتثليث البوذى

(ڤيشنو - شيڤا - كالى)

(١) تجليات الواقع الإلهية :

أدرك فلاسفة الفيدانتا جميعا أن البراهمان باعتباره (الواقع المطلق) ليس بالإمكان تعريفه بطريقة حرفيه فهو يتجاوز التصور وبالرغم من ذلك فإنه فى نهاية المطاف يتعين إنكار هذه الخصائص الساميه، الوجود والمعرفة والقداسة وهذا التعبير الشهير (عن طريق السلب negation وهذا التعبير يكشف عن الفهم الفلسفى القائل أن براهان لا سبيل إلى إدراكه بلغة تصورية مجردة .

وقد تصور المفكرون الهنود (براهمان) فى صورة شخصية وكذلك فى صورة مجردة مستفيدين من الكثير من التصور الحسى فى غمار هذه العملية فالحواس تنبه المشاعر والايمان. وكذلك الأفكار وقدرت الهند هذا الفهم الدينى على نحو يرقى إلي تقديرها وهو فهم ايجابى . وبهذا المنطور فإن المعرفة والقداسة والوجود التى تصف براهمان على نحو تجريدى. تكتسي لحما وشخصية باعتبارها الآلهة والإلهات التى حبها والخوف منها ورؤيتها ولمسها .

يقول كرشنا عندما يظهر فى (البهاجفا أجينا) فى صورة سائق عربة أرجونا الأمير الشاب المحارب يقول أنه هو حقا براهمان المطلق ومن يعبدون شيفا يعرفون أن (عضو شيفا الذى يطوقونه بباقات من الزهور هو الواقع الذى يمضى إلى ما وراء الوجود والعدم وأنه يقضى على الوجود ويخلقه معا ولكن الأمر المهم بالنسبة لهم هو

الألهة المثلثه :

١- فيشنو : هو قدرة الواقع فى الحفاظ على الحياة واستمرارها .

٢- شيفا : الهة لهاقدرة ميتافيزيقية تتجاوز الخلق والدمار وهى قوة تنحى القديم جانبا لتفسح مجالاً للجديد .

٣- كالى : هى الطاقة الآلهية الكامنة فى قوى التغير والتحول .

حضوره فى صورة شيفا وليس مفهوم المجرد وبالمثل فإن الذين يعبدون كالى والذين يعكفون على عبادة صورتها المخيفة يعرفون بقدرتها على التغلب على خوفهم من التغير والموت. لكن

ما هى هذه التجليات الالهية ؟

- نجد أن هناك ثلاث شخصيات وصور للواقع المطلق سادت الهندوسيه

١- فيشنو	٢- شيفا	٣- كالى
وتمثل قدرة الواقع على الحفاظ على الحياه وتغديتها	ويمثل كل من القوة المدمرة التى تنحى القديم جانبا لتفسح المجال للجديد	وتمثل الطاقة الإلهية التي تكمن فى قرار قوة التغير المحولة

وفيما يلى أشكال الأرباب، وكل منها يمثل وظيفة أو قوة لها أهميتها :

١) **فيشنو** : يقوم فيشنو بتغذية الحياة وللحفاظ عليها من خلال عظمته وهو يجسد حب الواقع وخيره ولم يكن فيشنو فى العصور الفيدية ربا بارزا على الرغم أنه آنذاك كان قد ظهر على أنه الرب القزم العملاق الذى قام بثلاث خطوات عملاقة تغطي العالم الذى ستسكنه الحياه ومن خلال عملية التوحد بين نارايانا فاسوديفا، وجوبال كرشنا حل منظور الولاء لفيشنو جزئيا محل منظور الطقوس وذلك عدا إضمحلال (أندراً) .

وفى المنظور الهندوسى للثالوث الإلهى حيث براهمان يخلق، وشيفا تدمر فإن وظيفة فيشنو هى الحفاظ على الحياة. ولما كانت التجربة الإنسانية الشاملة على وجه التقريب تقول إن الحب يغذى الحياة فمن الطبيعى أن يتم النظر إلى فيشنو باعتبار وظيفته الحفاظ على العالم .

* **تجليات فيشنو:**

بعد راما وكرشنا من أكثر أشكال فيشنو شعبية فراما بطل ملحمة (الرامايانا) وهو التجسيد الحى للخير ويمثل الرجل المثالى وأما كرشنا فهو هو أكثر الأرباب شعبية وأحبهم إلى النفوس لأنه تجسيد للحب والجمال .

يذهب التراث الهندوس إلى وجود عشرة تجليات رئيسية لفيشنو لإله الأعلى والرب الحافظ للكون فهو الواقع المطلق .

* **ماتسايا :**

١) يظهر فيشنو فى تجليه الأول على أنه ما تسايا وهى سمكة هائلة لانقاذ (ماتو) خلال الفيضان العظيم وماتو هذا يعتبر "نوح" الهندى الذى يمثل الجد الأعلى للبشر فعندما تهدد مياه الفيضان بالقضاء عليه وعلى الجنس البشرى فيجسد فيشنو صورة سمكة تستطيع حماية البشر من الفيضان .

* **تورما :**

٢) تجلية الثانى عندما تقوم الأرباب والأرواح الحارسة بتحريك مياه المحيط بعنف للحصول على أكسير الخلود فإنها تهدد بغمر الأرض بأسرها بالماء والقضاء عليها فتجسد فيشنو فى صورة «كورما» ــ سلحفاه عملاقة تسند الأرض إلى ظهرها وتنقذها من الدمار .

* **فاراها :**

٣) غمرت مياه المحيطات الأرض فتجلى فيشنو فى صورة خنزير برى ضخم هو (فاراها) يرفع الأرض فوق الماء لحمايتها .

* **ناراسهيما :**

٤) تجلى فيشنو فى صور (ناراسيهما) وهو مخلوق نصف رجل ونصفه أسد من أجل

القضاء على ما رد كان مقتنعا بأنه فى عصمه من أى هجوم يشنه عليه الأرباب .
قام بالهجوم على المارد ومزقه إربا فى وقت ضعفه عند الغسق (بين الليل والنهار).

* **فامانا :**

٥) ظهر فيشنو على صورة (فامانا) القزم الذى تجسد فيه فيشنو وقام بانقاذ العالم من عفريت شرير يدعى بالى استولى على الأرض بأكملها بدهائه وتوسل هذا القزم إلى (بالى) أن يعطيه من الأرض بقدر ما يستطيع أن يقطع فى ثلاث خطوات فقط، وعندما وافقه بالى تحول فامانا القزم إلى عملاق أخذ الأرض كلها فى ثلاث خطوات .

* **باروشراما :**

٦) تجلى فيشنو فى صورة (باروشراما) وهذا ليس من الجلى على وجه الدقة لأن من الواضح أنه لا يمثل سماحة فيشنو وإنقاذه للعالم من كارثة حلت به .

* **راما، كرشنا، بوذا :**

٧) (٨) (٩) وتمثل الثلاث تجسيدات، راما بطل ملحمة (الرامايانا)

(٢) كرشنا المعلم الربانى الذى نجده فى الجيتا .

(٣) بوذا المؤسس المستنير للبوذية ويمثل قوى الخير .

١٠) أما التجلى العاشر وهو (كالكين) على جواده الأبيض فسوف يكون الهبوط التالى لفيشنو وهو نوع من المخلص جاء ليعاقب الأشرار وليكافئ الأخيار .

٣) **كرشنا** ـــــ يقدم كرشنا (فى الفصول الثمانية عشر للعمل الشعرى) المعروف باسم (أنشودة الرب) يأتى على النحو الأكثر كمالا إلى العالم وهو على هيئة كرشنا سائق عربة (أرجونا) فيقوم بإبلاغ رسالته المؤثرة للبشرية معلما طريقة لعبادة الرب.

– يعلن كرشنا (أيا كان ما يخطى به كائن من مجد وجلال وسلطان فاعلم أنه فى كل الحالات صدر عن كسرة من مجدى فوجوده مشتعل عن العالم فيقول (ذاتي هي مصدر كل الكائنات وهى تبقى عليها لكنها لا تكمن فيها .

– ويوضع الفصل الحادى عشر من (البهاجفدجيتا) بصورة بليغة الفهم الهندوس لكون زخم الوجود الإلهى متجاوزا للفهم البشرى العادي فلكى يرى أرجونا الإله لابد أنه يمنحه كرشنا رؤية هيئته بصورة مبسطة .

وربما كان كرشنا الذى تجلى لأرجونا في (البهاجفدجيتا) مخيفا فى بهائه الجليل وسلطانه الذى يخلع القلوب بحيث يصعب الدنومنه فى حب ممزوج بالإخلاص وعلى الرغم من أن كرشنا الذى نجده فى (البهاجفدجيتا) يحظى بأهمية كبيرة بالنسبة لأتباع فيشنو إلا أن كرشنا (فرندافانا) virndavana هو الذى يطلق الخيال الهندوسى المتبتل فى عقاله. وكرشنا هذا يتبدى فى هيئة وليد صغير مثير للإعجاب وصبى عابث وشاب جميل مفعم القلب حياً فى ساحة (فرندافانا) الرعوية البسيطه فكرشنا هذا عادى كساحة (فرندا فانا) فهو كطفل يلهو مع أطفال الرعاة الآخرين وكشاب فى مقتبل العمر يبادل الراعيات حبا بحب ويتم الاقتراب منه لا بإعتباره ربا وإنما كند يشاركه المرء الحب والنشوة وحتى عبثه الطفولى أثير لدى النفس ويرمز إلي حماسة المرح الإلهى والوجود .

– فقد تمكن الهندوس من تأكيد أهميته التلقائية واللهو والمتعة فى الحياة الإنسانية فهى تشدد على أن الحياة ينبغى أن يحتفى بها ولأنه طفل صغير فمن الممكن الدنومنه مباشرة وبحلاء ودونما طقوس شكلية وبغير حذر بالإهتمام . تقول أنشودة الرب كل الكائنات تنشأ منها طبيعتى– إننى الأصل والفناء، ما من شيئ أسمى منى فى الوجود .

أنشودة كرشنا : كل الكائنات تنشأ من طبيعتى .. آلا فلتعرف ذلك عنها جميعاً وعن العالم بأسرة – إننى الأصل والفناء، ما من شيئ أسمى منى فى الوجود – يا أرجونا – حولى ينتظم هذا الكون بأسرة كما تنظم اللاءلئ فى العقد، راجع الفكر الشرقى القيم، ص١٥٥.

(٤) كالي آلهة الموت والدمار

هي تشخيص للموت والدمار فإن مظهرها مخيف ورهيب ولكنها كأم إلهية تقدم لأبناءها العزاء والأمن النابعين من حب الأم وهي التشخيص المتجسد لأبعاد الوجود المرئيه تساعد أتباعها على فهم عناصر العنف والمعاناة والموت التي تقتحم حياة كل إنسان فمواجهة كالي في تجلياتها الوحشية إنما هي مواجهة لاضطراب العالم واختلال إستقراره .

- تتسم أصول كالي بالغموض باعتبارها الإلهة العظيمة والأرض الأم وهي تضرب جذورها في الماضي البعيد وربما أسهمت الإمهات الفيديات في تكوين طبيعتها هي وألوان أخرى من التراث فهي تذكرنا بـ (فاك) ربة الفصاحة. فقد منحتها نصوص (البورانا) و (التترا) تاريخا أسطوريا يفسر أصولها وينظر إليها في بعض الأحيان على أنها تجل خاص لدورجا Durga وهو أحد الأسماء التي إشتهرت بها الربة العظيمة في الهند في القرون الوسطى .

- في إحدى القصص الشهيرة أن كالي ظهرت إلي الوجود باعتبارها قوة مدمرة لإنقاذ الأرباب وللحفاظ على العالم حينما تحدى المرده بنجاح هيمنة الآلهة وهددوا بالقضاء علي أساس النظام السائد في العالم ذاته فقد استدعت القوة النابعة من غضبها المشترك وهي قوة نبعت من وجوه الآلهة في صورة نور مخيف يخطف الأبصار- وهي أشد صور هذه الآلهة قوة وإثارة للرهبة في النفوس فهي ترتدي جلد نمر ضارب للسواد وتتقلد قلاده من جماجم وتحمل في يدها عصا تعلوها جمجمة، وفي الأخرى أنشوطة الموت فينفتح فمها فاغرا عن لسان دموي يبرز عن لثات حاده الأنياب ولها عيون غائرة محمرة وبشره خشنة وصوت مدو يملأ الآفاق إنها حقا صورة الموت والدمار ذاتها وهي ولدت من صلب رب الغضب فهي تدعى أحيانا وغالبا (شاكتي) التي تعني الطاقة أو القوة وعلى الرغم من مظهرها الرهيب فهي خيره تنقذ المخلصين لها وأنقذت

الآلهة فإنها الكيان الأصلى غير المولود الذى يصبح هذا الوجود بأسره ويبقى علي العالم وقد توصف فى بعض النصوص بالأم الإلهية (ماتا لاتشمى Mata Lakshmi) الجميلة ألهة السعادة والثروة. وفى النهاية فإن الآلهة تأخذ شكل (كالى) الرهيبة التى تجسد الموت وذلك علي وجه الدقه لكي تقهر الرعب والموت وبذلك تفسح المجال للحياة والنشوه .

- ثنائية كالى موضوع مألوف للأدب والفن اللذين تراكما حول هذه الآلهة فعلى سبيل المثال هناك لوحات رائجة تظهرها وهى ترقص على جثة زوجها وهى رقصة خالدة خاصة بالدمار فأياديها المتعددة التى ترمز لقوتها الإلهية تقبض على رموز الحياة والموت وفى يديها اليمينين تلوح بسيف ومقص باتر حبل الحياة والقضاء عليه وإحدى يديها اليسرى تقدم وعاء رمز للتغذية والثانية تقدم زهرة اللوتس وهى رمز للحياة والنقاء ويظهر جسمان تحت القدمين الراقصتين- شيفا الأدنى وهو زاهد ملتح عار لا تمسه طاقة كالى المانحة للحياه ويبدو جثة هامدة، ولكن شيفا الأعلى هو شاب جميل يتحرك متنقلا في رحاب الحياه نتيجة للطاقة الربانية التى تلقاها من رقصتها وهكذا فإن هذه الرقصة هى في وقت واحد رقصة الموت ورقصة الحياة .

- وهذه اللوحة تعيد إلى الأذهان قصة شهيرة وهى تفيد أن العالم قد تهدده مارد رهيب منشأ الدماء يبدو وكأنه لا سبيل إلى اختراق قوته لأنه من كل قطرة دم يهرقها يندفع ألف مارد جديد على القدر نفسه. فقد استدعت الربة كالى لتقضى علي المارد فهى رهيبة متأهبة دوما لخوص غمار القتال . وسيفها المتألق يحصدهم حصداً بالألوف وابتلعته، وعندئذ شرعت فى آداء رقصة نصرها فانغمست فى الرقص إلى حد الوصول إلى حالة السعار. غافلة عن كل شئ حولها وكأنما حل الجنون بها بعض الوقت وهددت كل الخلق وراحت الأرض ترتجف وإذا خشى الآلهة من دمار الكون ذاته فقد تناشدوا- زوجها (شيفا) ورجوه أن يتدخل ليوقفها عن الدمار وعندما أصمت أذنيها عن كل النداءات وفى نهاية المطاف قام شيفا فى غمار يأسه بإلقاء نفسه تحت قدميها

فراحت ترقص فوق جسده مهدده بأن يجتاحه الموت مع بقية العالم وأخيرا أدركت أنها ترقص على جسم زوجها فتوقفت عن الرقص وأنقذت الكون من الدمار والموت .

ويبقى سؤال يحيرنا وهولماذا تظهر كالى فى مثل هذه الأشكال الرهيبة والمخيفة إذا كانت فى نهاية المطاف راعية خيره تكفل الحماية ؟

إن الرد الهندوسي يقول ــــ إن هذه الصور تساعدنا على أن نتعرف على وجود الشر فى الحياة. والخوف والموت فمواجهة الربة فى أشكالها المخيفة إنما هى مواجهة لمخاوفنا من الوحدة والرعب والموت، وكالى ترفض السماح لنا بالإدعاء بأن كل شئ على ما يرام حقا وأن نتكتم خوفنا ووجعنا فهى تصر على أن نواجه الجوانب المخيفة فى الوجود وليس هدف كالى إرهاب أتباعها وإخافتهم بل دفعهم إلى مواجهة الحياه على نحو ما هى عليه من الجمال والسلام والنشوه والصلف والعنف والحزن .

(٥) شيفا الرقص الكونى :

يعد شيفا إلها ملغزا بقسم بالمفارقة فهو صيد الموت والخلق الراقص الكونى واليوجى الساكن ويرمز إليه بعضو تناسل الذكر ولكنه كذلك الزاهد العظيم فهو يأبى ممارسة الجنس حتى مع زوجته ولما كان شيفا (الإله العظيم) الذى يتجاوز كل الثنائيات فإنه ليس فقط سيد الدمار الذى يعمل مشاركا لبراهما سيد الخلق، وفيشنو سيد الإبقاء على الحياة وإنما هو الإله الأسمى الذى يؤدى كل هذه الأعمال فهو يقدم النعمة الإلهية التى بمقتضاها يمكن إزالة ضروب الإفتقار إلى النقاء التى تلوث النفس.

- وشيفا الراقص يعد الطاقة والإيقاع وشيفا اليوجى العظيم يحرس الكل غير المتمايز لما لم يخلق بعد ويحميه وبحسبانه سيد الخلق العظيم ويعد الرمز الرئيسى لشيفا هو "اللنجا" محور الكون وإذ يمتد بلا انتهاء إلى وما وراء الكون فإنه يعلن تجاوز ثنائية المتناهى واللامتناهى فى كيان شيفا وهذا الرمز يرمز إلى السكون العميق للمطلق قبل الخلق وبقدرته القابضة بالحيويه لقوة الحياة الخالقه .

- شيفا يقهر كذلك التعارض بين المحاثيه Immanence والعلو Transcendnce ونجد شيفا وهو يرقص داخل حلقة النار إنما يجسد طاقات الوجود الخلاقة الأصلية وإيقاع رقصة وطاقة حركاته يحولا الطاقة الأصلية إلى حياة .

والكون بأسره هو النتيجة المترتبة علي رقص شيفا الخالد الذى يخلق العالم ويدمره فى الوقت نفسه فى عملية لا تنتهى قط .

- يحمل شيفا فى راحة يده اليسرى العليا لسانا من لهب يمثل القوى المدمرة .التى ارتبطت طويلا بهذا الإله ويشير اللهب الخافق إلى التغيرات التى تحدثها للقوه المدمره وفى راحة اليد اليمنى العليا طبل يصدر عنه إيقاع الرقص والخلق وهاتان القوتان المتقابلتان الخلق المتجسد فى الصوت والدمار المتجسد فى النار تكمل إحداهما الأخرى وهما فى توازنهما المتناغم تشكلان الخلق والدمار المتواصلين اللذين يميزان الوجود .

وتوضح اليد اليمنى السفلى المتبديه بإشارة (لا تخف) التقليدية أن رقصة الخلق والدمار الكونية هذه هى رقصة لا ينبغى الخوف منها . بل إن اليد اليسرى السفلى تشير إلى القدم اليسرى المرفوعة وتوضح أنها رقصة التحرر ويعرفون أتباع شيفا أنه عباده قدمه المرفوعة سيجدون الملاذ والخلاص والقدم الآخرى تستقر بحزم على الشكل الطفولى لشيطان الجهل مما يدل على أن الجهل لابد وأن يداس عليه للوصول إلى الحكمة الخالصة التى تجلب التحرر من العبودية .

- وبينما يقوم شيفا بإخراج العالم رقصا إلى رحاب الوجود فإنه يزيل قناع الوهم الذى يغلفنا ويمضى بنا إلى حمل الوجود على أنه الواقع الأساسى وحركات الرقصة تكشف النقاب عن تجليات شيفا نفسه وهى الخلق والدمار والحفاظ والإخفاء والرعاية الإلهية أو التحرر .

* Shiva Linga شيفا : هى كلمة سنسكريتية معناها الصلاة، وموضوع العبادة الرئيسية فى المعابد الشيفية هو عضو شيفا الذى يطوق ببقات الزهور.

- من الذى يشد إنتباهنا ويجذ بنا هو قلب الصورة وهناك نرى محيا الإله الهادئ على نحو مدهش والذى يبدو مستقلا عن الرقص هذا الوجه الهادئ على نحو مفعم بالسعادة والرأس الساكن المتوازن يرمزان لتجاوز شيفا للزمان وللمكان، وترمز حلقه النار المقدسة التى تحيط بالراقص إلى كل من قداسة الوجود ودمار الجهل ومع دمار الجهل يأتى التحرر من العبودية للزمان وللتغير وتشير إلى عملية التطهر ونجد فى شخص شيفا تتوحد كل الثنائيات فى وحدة أسمى، والثنائية المتعارضة الأساسية التى تتوحد فى شيفا هى ثنائية الواقع المخلوق والظاهر من ناحية والواقع غير المخلوق والباطن من ناحية أخرى ويمثل الهندوسية إلى النظر إلى الواقع الأصلى غير المخلوق بإعتباره أوليا، والخلق أو التجلى هو نوع من تفسخ الكلى الأصلى غير المتمايز .

- وهناك أسطورة قديمة للغاية تقدم شيفا باعتباره حارس الواقع المطلق غير المخلوق، كما أنه سمح لهذا الواقع بالتفسخ على أنه حارس للوجود وتفيد هذه القصة أن (رودرا) الرامى الضارى بالسهام كان يحرس الواقع الأصلى غير المخلوق وفجأة يرى الأب الخالق وهو يعد لغرس بذرة الواقع غير المخلوق فى رحم أم الوجود بحيث يمكن أن يبرز الوجود المخلوق وأطلق (رودرا) سهما للقضاء على الأب إلا أنه تأخر فقد غرست بذرة الخلق بالفعل فقد أصبح رودرا سببا للخلق نفسه الذى كان يحاول منعه وبالرغم من أنه حاول الحيلولة دون عملية الخلق إلا أنه أصبح حارساً على الواقع المتجسد فى أشكال الوجود المختلفة .

- رمز شيفا الأول (اللنجا) الذى يمتد من رحم الوجود المخلوق ذاته إلى العالم الخفى الخاص بالواقع الأصلى غير المخلوق يضم بعدى الوجود وكليهما العلو والمحاثية غير المخلوق والمخلوق وهو باعتباره إله الرقص يرمز إلى طاقات الخلق .

- عندما أصبح من الأمور الزائعة فى إطار تراث لاحق النظر إلى طاقة الوجود

راجع فى هذا الموضوع إمام عبد الفتاح إمام (الدكتور) الفكر الشرقى القديم، عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٩٩، ١٩٩٥، ص١٥٠، ١٦٧ .

الخالقة باعتبارها طاقة أنثويه أى على أنها شاكتى (Shakti الإلهية فإن شيفا غالبا ما كان يتم تصوره باعتبار أن له زوجه إلهيه هى غالبا بارفاتى Parvati أو كالى Kali وهنا يرمز شيفا إلى الكل غير المخلوق براهمان ولكن لأن شيفا هو الأمران معا بالفعل فإنه يصور كذلك على أنه يضم فى شخصه كلا من الذكر الخالد والأنثى الخالدة. وباعتباره نصف ذكر ونصف أنثى (أرذا أنار يشفارا) (Ardhanaraish Vara) فإنه يوجد على نحو جلى من ثنائيات الذكر الأنثى فى كيانه.

- وفى النهاية هو حياة كل الكائنات وأساس الوجود المفارقه لكل الأسماء والأشكال وشيفا الخالد يتجاوز كل الأسماء والصفات وهو على الدوام أول وآخر وظاهر وباطن وخفى فى وجوده الأسمى وهو حامى الخلق بالرغم من أنه طاقة الخلق ويرقص داخلاً إلى الوجود إلا حامياً لكل المخلوقات (باشوباتى Pashupati).

* شاكتى: الطاقة الإلهية الخلاقة

* شيفا: أو سيفا هو كيان مزدوج يضم كلا من شخصية الذكر والأنثى الخالدين، وهو حياة الكائنات وأساس الوجود .

التغير والواقع : الفيدانتا

أثرت تعاليم الأوبنيشاد فى كل فلسفات الهند حتى فلسفات الجينية والكارفاكا والبوذية التى رفضت سلطة نصوص الأوبانيشاد ولكنها جوهرياً قد تأثرت بتلك النصوص، واجتهدت كل الفلسفات والدارسين إلى تفسير هذه النصوص انطلاقاً من واقع اتجاهاتهم متفقين جمعياً على أن الجوهر واحد .

وعلى هذا فقد قامت مدرسة الفيدانتا بتأويل نصوص الأوبانيشاد بحيث لا تختلف مع النتائج الرئيسية لهذه النصوص، وأيضاً تحولت إلى نقد بعض النتائج التى توصلت لها المذاهب الفلسفية الأخرى فمثلاً .. تذهب مدرسة السامخايا إلى القول بأن عالم "اللاذات" هو العالم الحقيقى متميز عن عالم الذات، وأيضا آراء النايايا والفيشيشكا والميماسا عن العالم بإعتباره حقيقياً وتعددياً وأنه مؤلف من أنواع مختلفة من الذرات، فقد وجدت الفيدانتا أنهم قد انحرفوا بعيدا جداً عن التأكيد على أهمية الواقع الوحيد "اللا أتمان" أو "البراهمان" فى نصوص الأو،بانيشاد .

– تجمع المذاهب الفلسفية للنايابا والفيشيشكا والسامخايا والميماسا على الإتفاق على أن إدراكاتنا الحسية لها أساس فى الواقع وهذا الأساس يمكن التعبير عنه بالقول بأن ما يدرك يوجد على نحو مستقل عن كونه مدركاً وهو ما يعرف باسم "المذهب الواقع" وهو يشير ببساطة إلى أن العالم الموضوعى الذى يتم الكشف عنه من خلال التجربة هو عالم واقعى حقيقى ويوجد بصورة مستقلة عن معرفته ولهذا فإن هذه المذاهب تعددية من حيث أنها تجمع على أن هذا الواقع الموضوعى يتألف من العديد من الموضوعات المختلفة وهذه الرؤية يتبناها معظم الناس فى العالم ويراد بها أنه عندما يراد النظر إلى تجارب المرء باعتبارها تقدم معرفة فإنه من الضرورى أن تكون معرفة بشئ ما ، وإن لم يوجد هذا الشئ لا يكون هناك معرفة، ولكن اذا وجد شئ ليعرف فمعنى هذه وجود موضوعات بعيدة عن الإدراك ممكن ربطها بمن يقوم بالمعرفة على نحو

تصبح معه مدركة ومعروفة وعلى هذا فاذا زعمنا وجود معرفة فى العالم فاننا نسلم بالوجود الحقيقى الواقعى للعالم ولكن حينما نقول بأنه ليست هناك معرفة فهو قول خلف محال لأنه يعنى فى حد ذاته وجود معرفة نحن ننفيها وأى أساس آخر هناك غير المعرفة للقول بأنه هناك معرفة بالعالم .

- وقد وجد فلاسفة الفيدانتا فى نتائج المذهب .الواقعى التى قالت به الفسلفات الأخرى تناقضاً مع نتائج نصوص الأوبانيشاد التى تقول بوحدة الواقع وهوية الذات فتقول "كل شئ هو أتمان" لا تعدديه" وعندما يعرف الأتمان يعرف كل شئ ولم يكن فى البدء سوى الوجود (Being) [(١)] كان واحداً لا ثانى له "وكل شئ هو براهمان" وهذه الذات هى البرهمان" و "إنى أنا البراهمان" وكل ذلك يدل على الوحدة وليس التعدديه وهى نظره مقبولة لأنها لا تتناقض مع العقل ولا مع التجربه ولذلك كانت مقبولة بالنسبة للهندوسين، وعلى هذا يجب دراسة الدعاوى الأخرى للفلسفات الأخرى لنجدها متناقضة مع بعضها وغير محتملة ومن هنا فإن مهمة إيضاح أن الفلسفات ذات النتائج التى تتضارب مع التعاليم الواحدية لنصوص الأوبانيشادهى فلسفات غير مقبولة، ولهذا جرى التشديد على أهمية التحليل النقدى للفلسفات الأخرى، بل كان من الضرورى إظهار أن مذهب الواقع الذى ادعته التأويلات الفيدانيته للأوبانيشاد لا يتعرض لنفس الإنتقادات التى وجهت إلى المذاهب الأخرى، وبهذه الطريقة نقدت فلسفات الفيدانتا المذاهب الأخرى نقداً عقلياً كما قدمت دفاعاً عقلياً عن تأويلاتها وعن مذهبها الخاص .

* هناك ثلاث مدارس رئيسية للفلسفة الفيدانتية تختلف احداهما من الأخرى فى الطريقة التى تفسر بها العلاقات بين الأشخاص والأشياء والواقع المطلق "لبرهمان" وهذه المدارس هى :-

(١) كان التشيد الذى يتغنى به الهنود هو: فى البدء لم يكن موجودا، أو ما لم يوجد، ولم يكن هناك ما تثبته أو تنفيه- لا أجواء ولا سماء وراء الأجواء. لم يكن موت ولم يكن خلود . لم يكن ليل ولا نهار، لم يكن سوى الأوحيد حيث لا أنفاس ولاشئ سواه .
راجع المعتقدات الدينية لدى الشعوب، د. إمام عبد الفتاح، ص١٥٢ .

(١) لا - ثنائية شانكارا ..

تمثل رؤية شانكارا للواقع فى أن هناك واقعاً واحد مطلقاً ومستقلاً وهو وحدة الوجود الحقيقى غير المتغير أو «البراهمان» الذى تحدثت عنه الأوبانيشاد وهى بذلك تستبعد كل الفطريات التى تقول بتحول العالم من المادة أو المادة والبراهمان أو باعتباره نتاجاً للعناصر المادية .

ويقول شانكارا أن البراهمان هو الواقع الذى يتيح وجود المظاهر التى تشكل العالم التجريبى ولكنه متجاوز لهذه المظاهر فالبرهمان يتجاوز العالم .

ولا يمكن اثبات طبيعة البراهمان ووجوده من خلال الإدراك الحسى أو التحليل العقلى وانما ذلك يستمد أما على أساس شهادة نصوص الأوبانيشاد أو من خلال التجربة المباشرة والحدسية من النوع الذى يجعل التركيز اليوجى ممكنا، ورغم ذلك فإن العقل يمكن أن يستخدم لتبرير هذه الأساليب الخاصة بمعرفة البراهمان .

- ولكى يتم التوفيق بين التعددية المدركة والواقع الموضوعى للعالم مع النتائج الواحدية للأوبانيشاد . فإن شانكارا ينظر إلى العالم باعتباره مظهراً وليس واقعاً وللإدراك الحسى على أنه وهم وليس معرفة .

والنفس الفردية باعتبارها ذاتاً خالصة أو أتمان ليست مختلفة من البراهمان .

* اعترض شانكارا على رؤيه فلسفة السامخايا بأن العالم هو نتيجة للتطور التلقائى للمادة غير الواعيه أو البراكريتى التى تتألف من ثلاث مكونات أو جونات هى : الساتفا والراجاس والتاماس. وترى أن العالم على ما هو عليه يصح للذوات التى ولدت مرة أخرى ويمكنها أن تتحرر ولكن كيف يمكن للمرء أن يفترض أن العالم

هذه العناصر الثلاثة هى مكونات العالم (Gunas)

تاماس Tamas

راجاس Rajas

الساتفا Sat ava

الذى هو نسق متناغم ،من الموضوعات المترابطة والأحداث المنظمة على نحو ما نراه فى تجربتنا وعلى نحو ما تذهب فلسفة السامخايا ، كيف يمكن للمرء أن يفترض أن هذا العالم يمكن أن يكون نتيجة عرضية لسبب غير واع ؟ إن تحليل شنكارا يفيد أن إسناد هدف إلى طبيعة غير واعية هو أمر لا يمكن قبوله عقلاً وبالتالى فإن رؤية السامخايا لا سبيل إلى الدفاع عنها .

* ورؤية الفشيشكا هى أن سبب وجود العالم هو .تجمع الذرات ولكن مرة أخرى كيف يمكن للذرات غير الواعية أن تنتج من تركيبها النظام الذى يجعل من الممكن وجود القانون الأخلاقى الذى يقول به فلاسفة الفشيشكا ؟ وحتى إذا تم تجاهل هذا الاعتراض فإن الفشيشكا لم توضح كيف ولماذا يتعين أن تبدأ الذرات غير الواعية فى التحرك أولاً، ثم الإنضمام إحداها إلى الأخرى لتنتج العالم فاذا كانت الذرات فى حركة دائمة وينضم بعضها إلى البعض الآخر بسبب طبيعتها ذاتها فإن أيا من بداية العالم أو انحلاله لن يكون قابلاً للتفسير ومن هنا فإ رؤية الفشيشكا ليست مقبولة بحسب تحليل شانكارا حيث أنها تقول بكل من الإنتاج والدمار معاً .

* من ناحية الرؤيه الخاصة للسبب والنتيجة . تسلم الفلسفات الأخرى كافتراض أساس حقيقة التغير الحقيقى والسببية أى أنها كلها تسلم بالتغيرات الواقعية المختلفة التى تحدث فى العالم وبأن لهذه التغيرات أسبابها .

- وفيما يتعلق بالعلاقة بين السبب والنتيجة فإن هناك رؤيتين فحسب هما الممكنتان :

فاما أن النتيجة موجودة مسبقاً فى السبب، واما أنها ليست كذلك. وما لم تكن النتيجة موجوده مسبقاً فى السبب فانها تكون جديدة وهذه الرؤية تسمى "اساتكارايفادا" «انعدام النتيجة» فإذا زعمنا زن النتيجة توجد مسبقاً فى السبب «أسانكارايفادا »Astakaryavada (إنعدام النتيجة) فقد يترتب على هذا الزعم نتيجتان :- فقد تسلم من ناحية بأن التغير والسببية ليس سوى إظهار ما كان خافياً

فى السبب إلى العلن أو يمكن القول بأنه ليس هناك فارق بين السبب والنتيجة، وقد تمسكت مدرسة النايابا والفشيشكا بأنه ليس هناك فارق بين السبب والنتيجة "الأساتكاريافادا" على أساس أن النتائج تم معايشتها باعتبارها شيئاً جديداً تماماً وتمسك فلاسفة آخرون من السامخايا والميماسا "بالساتكارايفادا" مسلمين بالتغيير وأنكروا أن تكون النتائج حقائق جديدة .

– ويرى شانكارا أن السامخايا قدردت على آراء فلاسفة الفشيشكا وفى نفس الوقت ردت على نفسها . فمن ناحية أن النتيجة شئ جديد مختلف عن السبب (الأساتكارايفادا) ليس مقبولاً فما من شئ يمكن أن يظهر نتيجة باعتبارها مختلفة عن سببها المادى فالقدور الفخارية هى فخار لا يمكن أن توجد بمعزل من الفخار فهى من منظور سببها المادى كانت موجودة على الدوام وعليه يمكن القول أنه من المستحيل تصور شئ جديد تماماً يظهر إلى الوجود وكل ما يمكن التفكير فيه هو تحول المادة لا استحداثها من عدم فلو كانت النتيجة شيئاً جديداً لوجدنا أنفسنا حيال ظهور ما ليس موجوداً إلى الوجود ، فلم لا نحصل على النفط من الرمل وهو غير موجود فيه .

– وكذلك تفسير السامخايا المعروف "أساتكارايفادا" النتيجة تسكن الأسباب" غير مقبول فإذا كانت النتيجة موجودة مسبقاً فى السبب فكيف يمكن أن يكون هناك تحول أصيل للمادة إلى النتيجة ؟ لأن ذلك يعنى أن تكون الصيرورة هى تحو ما هو موجود بالفعل إلى وجود وهو أمر لا معنى له واذا كان رد فلاسفة السامخايا بأنه النتيجة هى الأسباب مع اختلاف الصورة والاسم فمعنى هذا أن شيئاً جديداً تم انتاجه فانهم يسلمون بالفعل يوجود "الأسكاتكارايفادا" أى يقرون بالنتيجة باعتبارها شيئاً لم يوجد من قبل وهذا يناقص حججهم ضد "الأستاتكارايفادا" .

والحل الذى يطرحه شانكارا هو أن يبين أنه على الرغم من أن التغيرات فى الشكل يتم إدراكها إدراكاً حياً إلا أن ذلك لا يعنى تغيراً فى الواقع ما لم يكن للشكل

واقع خاص به ولكن الشكل بالطبع ليس له وجود رلا بالاعتماد علي المادة فليس هناك شكل إلا فى المادة المشكله ومن هنا فإن الشكل ليس له واقع مستقل "رد على الأساتكارايفادا" ومن وجهة نظر أخرى تطرح الحجة القائلة بأنه إذا كانت الجواهر متميزه عن أشكالها فإنه سيكون من المستحيل تفسير العلاقة بين الشكل وبين الجوهر إلا من خلال واقع ثالث يربطهما أويصلهما معاً ولربط هذا الواقع بالواقعين الآخرين تمس الحاجة إلى واقع آخر وهكذا لن تكون هناك نهاية لربط الشكل بالجوهر الأمر الذى يجعل التغير مستحيلاً واذا ما لم الاقرار بأن الشكل ليس له واقع مستقل من المادة فلن يكون هناك تغير يشهده الواقع وتكون نظريه "أساتكارايفادا" صحيحة .

(٢) الوهـم ..

والحل الذى يطرحه شنكارا لهذه المعضلة يتمثل فى الإشارة إلى أنه من حيث أن التغيرات المدركة حسياً لا يمكن القبول بها عقلا باعتبارها واقعية فإنه لابد من النظر اليها على أنها تشبه إدراكنا لموضوع مهم .

إذا كانت الموضوعات التى تشكل تجهيز العالم شبيهة بالموضوعات الوهمية الخاصة بتجربة الحلم فإنه يصبح من الممكن التوفيق بين وجود البراهمان وحده باعتباره الواقع ،المطلق وبين وجود العالم التجريبى باعتباره غير حقيقى، فالعقبان الذى يوجد فى الحلم انما يوجد فى الحلم لكنه ليس واقعياً ولابد من التسليم بأنه موجود ذلك أنه يغير هذا التسليم لن يكون هناك حلم وبطريقة مماثلة فإن موضوعات العالم التجريبى انما هو انكار تجربة الإدراك المألوفة ولكن إذا كان هناك تشابه بين موضوعات الحلم والموضوعات التى يتم إدراكها فى تجربة اليقظة فربما يمكن كذلك أن يقال عن موضوعات تجربة اليقظة أنها غير واقعية بالمقارنة بتجربة واقع أعظم، ففى نهاية المطاف مادام المرء يحلم فمن المستحيل النظر إلى موضوعات الحلم باعتبارها غير واقعية، ولكن يمكن النظر إليها على أنها غير واقعية من نقطة .متقدمة خاصة بتجربة

اليقظة وكذلك من الممكن النظر إلى موضوعات العالم على أنها غير واقعية من مستوى أعلى للتجربة وهو تجربة "البراهمان" يمكن من خلالها النظر إلى موضوعات تجربة اليقظة باعتبارها غير واقعية .

وهكذا فإنه إذا كانت موضوعات تجربة اليقظة العادية تشبه موضوعات الحلم فى هذا الصدد فسيكون من الممكن تحقيق التآلف أو التصالح بين وجود العالم التجريبى والإدراكى مع واوقع براهمان الوحيد على نحو مماثل للتصالح بين وجود موضوعات الحلم ولا واقعية هذه الموضوعات .

واذا ما أشير إلى عالم التجربة العادى بأسره هو على نحو الأنحاء عالم وهمى" وعلى ذلك يجب فهم طبيعة الوهم من خلال مثال فرضته الفيدانتا عن الحبل الذى يري على سبيل الخطأ على أنه ثعبان فلن يكون هناك وهم، ولكن الجهل فى حد ذاته ليس كافياً لإفراز الوهم، ويتعين أن يكون للجهل الذى يفرز الوهم جانبان: أولهما أن يغطى الواقع الماثل بالفعل أى الحبل على سبيل المثال والثانى أن يشوه بالفعل ما هو موجود حقاً ويقدمه باعتباره شيئاً مخالفاً لما هو وعليه .

واذا كانت طبيعة العالم تشبه الموضوع الوهمى فلابد أن يكون العالم نتاجا للجهل حيث الواقع الأساسى مشوه بالفعل ومحول إلى شئ آخر خلاف ما هو عليه وبهذه الطريقة فإن الواقع الحق أو براهمان يمكن الخلط بينه وبين موضوعات العالم التجريبية عن طريق الجهل وهذه الموضوعات هى التشويه الخفى البراهمان الذى هو وحده الحقيقى ومن هذا الجهل وحده ينطلق العالم حيث أنه يخفى الطبيعة الحقه للواقع.

وكالساحر الذى يخرج من قطعة نقديه واحدة قطع كثيرة كذلك بفعل الحكيم فهو يرى واقع مطلق واقعى واحد يخرج منه أشياء العالم التجريبية . وأن الوهم هو أشياء العالم والحقيقة هى الواقع المطلق أو البراهمان .

ولكن اذا موضوعات العالم غير حقيقة فلا وجود لتغيرات حقيقية، فللتغيرات نفس الواقع الذى تخطى به الموضوعات التى يفترض أنها يتغير وبالتالى فإن نظريه التغير الوحيدة الممكنة هى نظرية التغير الظاهر للعيان وليست نظرية التغير الحقيقى فالتغيرات والأسباب الحقيقية تحتاج إلى موضوعات حقيقية وليس موضوعات وهمية .

ولكن اذا كان ساتكارا على حق فلا يمكن أن تكون هناك تغيرات ولا أسباب حقيقية ذلك لأنه ليس هناك موضوعات حقيقية لكى يتغير ومن شأن هذا أن يدعم عدم صحة ما ذهبت اليه نظريات النايابا والفشيشكا والسامخايا عن التغير .

واستخدم شاتكارا نظرية طبيعة العالم التجريبى الوهمى على تحليل نصوص الاوبانيشاد من أن العالم التجريبى قد خرج من البراهمان على نحو ما ستخروج الثعابين من الحبال والقطع النقديه من القطعة الواحدة هناك وجود بقدر ما هنالك من موضوعات ولكن ليس هناك واقع حقيقى لأن الموضوعات وهميه فهى ناتجه بن الجهل .

تعتمد هذه المحاولة من جانب شانكارا لتفسير العالم باعتباره مظهراً احدثه الإدراك الوهمى تعتمد فى نجاحها إلى حد كبير على تطبيق المماثلة مع الإدراك الوهمى ويتم بذلك من خلال القيام بتحليل مفهوم الخطأ الإدراكى بمزيد من العناية .

- يقول فلاسفة الميماسا أن لا يوجد خطأ فى الادراك ولكنه ما حدث بالنسبة للحبل والثعبان مزيج من الإدراك والذاكرة جنباً إلى جنب مع الإخفاق فى التمييز بين الاثنين وهم يقولون على هذا النحو أن الادراك صحيح والذاكره صححية ولكن الأمر أدى على نحو خاطئ والخطأ يكن فى الاخفاق فى التمييز .

- ويرد فلاسفة الفيدانتا بأنه يوجد فارق بين ما هو مدرك وما هو متذكر أما عندما يتدخل الاثنان فانهم يصبحان شريحه، ففى حالة الادراك يقول اننى أدرك هذا وفى حالة التذكر يقول أننى أتذكر هذا" ولكن بالدمج يكون هذا الواقع الذى أمامى لقبان . وعلى هذا فإن أسباب التى تناولتها مدرسة الميماسا أسباب غير مقبولة .

ويمكن الاعتراض بأن رؤيه النايايا غير مقنعة لأن ما لا يوجد الآن وهنا يمكن أن يبدو كما لو كان موجودا الان وهنا.

وذلك بسبب الجهل. وبالطبع فإن الموضوع الوهمى ينبغى أن يوجد باعتبارة وهميا وتدوم واقعية الوهم مادام الجهل موجودا فإذا زال الجهل زال وجود الوهم .

وتقدم رؤية (شانكارا) للواقع تفسيرات تفح عن كيفية التوفيق بين التعددية المدركة فى العالم، وبين وحدته المطلقة، وهوية النفس مع هذه الوحدة المطلقة (١) .

* أنشوده الرب عند كرشنا

كل الكائنات تنشأ من طبيعتى

فلتعرف ذلك عنها جميعاً وعن العالم بأسرة

أننى الأصل والغناء. ما من شيئ أسمى منى فى الوجود.

يا أرجونا

حولى ينتظم هذا الكون بأسرة

مثلما تنتظم اللاءالئ فى العقد (٢) .

---

(١) راجع الفكر الشرقى . ص١٣٨، ٣٩، ١٤٠ .

(٢) الفكر الشرقى، ص١٥٥ .

النحل الفارسية
وأثرها فى الفكر الاسلامى

النحل الفارسية
وأثرها فى الفكر الاسلامى

لا بد وان افكارا شتى كانت قد تنازعت الدولة الاسلامية خصوصا أفكار الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة.

تلك الأفكار التي تأثرت ولا شك بنزعات غير إسلامية خصوصا ما جاء فى الافكار الفارسية من أساطير ومذاهب فلسفية. من أمثال أسطورة - الكيمورث - والزرادشتيه الماجوسية - والزوانية - والساسانية - والمزدكية.

ومن المؤكد ان الشيعة قد تأثروا بمثل هذه الأفكار التي تمخضت عن آثار مازالت سائدة حتي الآن. فالافكار الفارسية لا تري شرعية الحكم إلا في نطاق أسرة عريقة قوية ذات حسب ومجد تليد كما كان الحال في أيام «قورش وأسرة ساسان».

كما تأثروا بفكرة «زرادشت» التي تبشر بالمخلص الذي سيظهر في آخر الزمان ليملأ الدنيا عدلا ،كما ملئت جوراً وظلماً وقد ظهرت هذه الفكرة فيما عرف عند الشيعة «بالامام الغائب» الذي تمثل عندهم في «محمد بن الحنفية» الي تبلورت حوله آمال الشيعة بعد مقتل الحسين في كربلاء.

ومحمد بن الحنفية هو الابن الثالث للامام علي بن ابي طالب ويقال انه دخل سرداب بجبل رضوي بظاهر المدينة. وانه سيعود للظهور ليملأ الدنيا عدلا كما ملأت جورا وظلما.

ثم أن فكرة الإمام المعصوم الذي لا يخطئ هي أيضا من الأفكار التي سيطرت علي العقلية الفارسية التي مازالت تدين بالولاء لهذه الفكرة حتي الآن.

كذلك فإن أسطورة «الجيو مورد» أو «الكيمورث» أو ما عرف عند متفلسفة الصوفية فيما بعد «بالإنسان الكامل» هي من آثار العقلية الفارسية.

وسوف نحاول بحث آثار هه العقلية المتطرفة في المذاهب المختلفة.

(١) أسطورة الكيمورث

الكيمورث : كانت اسطورة الكيمورث أو الإنسان الكامل أو آدمون الذي هو أول خليفة لله في الارض - كانت ذات أثر بالغ علي معظم النحل الفارسية التي ترد الوجود الي أصلين هما : النور والظلمة.. أو الخير والشر. أو (يزدن) الأزلي (وأهرمن) المحدث بها.

وهه الافكار ترتد الي الحضارة السحرية الإيرانية الهلينية كما يذكر «هينرش شيدر»(١) - وتعود صورة الانسان الكامل الي صورة الإنسان الأول في التفكير الإيراني العتيق ويظهر إسمه هكذا جيا مرتين Gaya Martan أي الحياة الفانية أو في صورة أبسط الحياة Gaya ويظهر في الكتب المتأخرة جيومرد Gyomard وهي التي تكتب في العربية «كيومرث».

والانسان الأول في التفكير الإيراني القديم يؤدي وظيفة كونية فهو النموذج الأول للإنسانية وأصلها، نظرا الي أن الزوج الأول نشأ بعد وفاة الإنسان الأول من أجزاء من جثته غارت في تراب الأرض - وثمة رواية خاصة تقول أن أجزائه الثمانية نشأت من المعادن الثمانية وهي نظرة تنجمية ترجع إلي فكرة الكواكب السبع التي تقابلها معادن سبعة يتكون منها العالم. يضاف اليها معدنا ثامنا هو اشرف المعادن وهو الذهب الي ينشأ عن النفس Gyan(٢) .

وهذه الروايات تؤكد تصوير الإنسان الأول بوصفة ماهية كونية وحيثما أمكن يلعب الانسان الاول الدور الرئيسي في نشأة الكون.

و هذا النظام يتسم بالحياة عن طريق فكرة الأزدواج بين الخلق الالهي والخلق

(١) هانز هينرش شيدر، نظرية الانسان الكامل عند المسلمين، مقال مترجم نقله د. عبدالرحمن بدوي عن أصل محاضرة القيت امام شعبة برلين للجمعية المشرقية الألمانية - راجع كتاب الانسان الكامل في الاسلام، ص ص ٧٩، ١٠٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٨، ١٠٩.

المضاد الشيطاني وما بينهما من كفاح ينتهي بانتصار قوي النور. وفي ها يكون الانسان الاول بوصفه ممثل الانسانية ومعناها الباطن بمثابة رسول الله المدافع ضد القوي الشريرة.

وقد ظهر تأثير هذه الاسطورة في فكر فلاسفة المسلمين عند اخوان الصفا فيما يعرف «بالانسان الفاضل» ثم «الانسان الكامل» عند ابن عزبي وتلاميذه من بعده وهو ما سنعرض له في مكانه من هذا الكتاب.

(٢) الزرادشتية «الماجوسية»

ترجع الزرادشتية الي مؤسسها «زرادشت» الذي ترجح المراجع انه عاش في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وربما ظل علي قيد الحياة حتي عام ٥٨٢م.

ولد زرادشت في (أذربيجان)[(١)]، ويجئ وصف ولادته علي نحو أشبه ما يكون بميلاد المسيح «الرباني» ذلك انه يعتقد أن الله خلق خلقا روحانيا سابقا في الصحف الأولي والكتاب الأعلي من ملكوته ثم انفذ مشيئته بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة في صورة نور، علي تركيب صورة الانسان - وخلق الشمس والقمر والكواكب والأرض ساكنة غير متحركة ثم جعل روح زرادشت في شجرة أنشأها في أعلي عليين وغرسها في جبل من جبال أذربيجان. ثم مازج شبح زرادشت بلبن بقرة فشربه ابو زرادشت فصار نطفه، ثم مضغه في رحم أمه، فقصدها الشيطان وغيرها فسمعت أمه نداءا من السماء فيه دلالات علي برئها فبرأت. ثم أنه لما ولد ضحك ضحكة تبينها من حضر واحتالوا علي زرادشت حتي وضعوه بين مدرجة البقر ومدرجة الخيل، ومدرجة الذئاب وكان يقوم كل واحد منهم بحمايته من جنسه. فلما استوي عوده انتقل الي فلسطين واستمع الي تلاميذ النبي «أرميا» ثم عاد الي أذربيجان ليدرس الأديان الفارسية القديمة، وحين بلغ ثلاثين سنة من عمره بعثه الله نبيا ورسولا. وقد نسبت اليه خوارق ومعجزات اشبه بما يعرف عن معجزات السيد المسيح. وان صحت رواية ميلاده فانه لا بد أن أثرها كان كبيرا في تطور نظرية الانسان الكامل التي جاءت عند تلميذ الشيخ الاكبر محيى الدين بن عربي وهو صدر الدين القوونوي الذيي يري أن الإنسان الكامل يوجد في نبات يأكله الأب فيصير في ظهره نطفه، ثم ينتقل الي رحم الأم او مستودعه ليصير علقة - ثم يواصل رحلة ترقية في مراتبه السفلية والعلوية الي ان يصبح انسانا كاملا ومرآة كونية[(٢)].

(١) علي سامي النشار (دكتور) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، دار المعارف، ١٩٨١، حـ ١ ، ص ١٩١.

(٢) ابراهيم ابراهيم ياسين (الدكتور) رسالة دكتوراه غير منشورة - بعنوان صدر الدين القونوي وفلسفته الصوفية، مكتبة جامعة القاهرة، ١٩٨٥م ص ص ١٤٧-١٧٦.

ويعالج مذهب زرادشت الوجودي مسألة الخير والشر على سياق المذهب القديم وهو مبدأ التثنية وجعلهما «النور والظلمة» أو «يزدان وأهرمن» - وقد امتزج النور بالظلمة لسبب ما فحدث عن هذا الامتزاج صدور الكائنات كلها مركبة من نور وظلمة أو شر وخير، وقد توقف وجود العالم على هذا الامتزاج والعالم في صراع دائم بين القوتين فإذا ساد النور يخلص الخير الي عالمه وينحط الشر - وهنا نجد وجها للشبه بين هذه النظرية والنظرية اليونانية عند الفيلسوف اليوناني القديم «انبادوقليس» حيث يرد الوجود الي الصراع بين قوتي «الحب والكراهية» فإذا ساد الحب كان العالم والتوالد والتكاثر واذا سادت الكراهية كان الإنفصال والموت.

ومن العجيب ان مؤرخي المسلمين قد حاولوا ان يصبغوا الزرادشتيه بصبغة التوحيد - فاعتبروا النور والظلمة مخلوقين لله الواحد الذي أبدع النور وهو الوجود الحقيقي في نظرهم. ثم تولدت عنه الظلمة كوجود تابع[١].

ولقد بقيت الزرادشتيه التي عرفها المسلمون بالمجوسية. أو عبادة النار. حتي دخل الاسلام فارس وانتشرت بيوت النار في أرجاء الامبراطورية الاسلامية[٢].

---

(١) الشهرستاني، الملل والنحل، بهامش الفصل، طبعة بيروت، ١٩٧٥م، حـ ٢ ص ٨٠.
(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، حـ ٥ ص ١٩٢.

(٣) الزروانية

هذا الاتجاه يأخذ نفس الفكرة السابقة «النور والظلام» أو الخير والشر فيقال ان (زروان) مؤسس هذا المذهب لما شك في شئ من الاشياء خرج (اهرمن) او الشيطان كما يقال ان زروان الكبير حاول ان يكون له ابن طوال تسعة الاف وتسعمائة تسعة وتسعين سنة فلم يكن له ثم شك في وجود العالم فحدث اهرمن من ذلك الهم او الشك وحدث هرمز من العلم فكانا جميعا في بطن واحد، وكان هرمز اقرب من باب الخروج فاحتال أهرمن الشيطان علي ذلك وشق بطن أمه وخرج قبله واخذ الدنيا وقيل انه لما مثل بين يدي «زروان» فابصره ورأي ما فيه من الخبث والشر والفساد فأبغضه، فلعنه وطرده فمضي واستولي علي الدنيا - واما - (هرمز) فبقي زمانا لا يدله عليه وهو الذي اتخذه قوم ربا وعبدوه لما وجدوا فيه الخير والطهارة والصلاح[١].

وتمضي قصة الصراع بين الخير والشر او بين النور والظلام باعتبارها القصة الأساسية في النحل الفارسية القديمة يتوجها اعتقاد المجوس في أن الشيطان كان لم يزل في الظلمة والجو والخلاء بمعزل عن سلطان الله وأنه شاهد النور فوثب فيه وخلق الله له العالم شبكة سقط فيها وصار متعلقا بها لا يمكنه الرجوع الي سلطانه فهو محبوس في هذا العالم. يرمي بالآفات والمحن والشرور خلق الله - وهي كلها أفكار أسطورية أو قصص فلسفية تنم عن عقلية خرافية متسلطة تمتزج أحيانا باتجاهات دينية مشوهة.

(١) راجع في ذلك الشهرستاني، الملل والنحل، هامش الفصل في الملل والاهواء والنحل، بيروت ١٩٧٥م حـ ٢ ص ص ٧٥، ٧٦.

(٤) السيسانية من المجوس الزرادشتيه

رئيس هذه الفرقة المجوسية السيسانية رجل من رستاق نيسابور يقال له (خواق) خرج في ايام ابي مسلم. وكان زمزميا في الاصل إلا أنه خرج علي الزمزمة ودعا المجوس إلي تركها وترك عبادة النار.

وقد حرم الأمهات والبنات والإخوان كما حرم عليهن الخمر وأمرهم باستقبال الشمس عند السجود علي ركبة واحدة. وهذا الصنف من المجوس لا يأكلون الميته ولا يذبحون الحيوان الا بعد ان يشيخ. ولقد قتل صاحب هذه الفرقة علي يد إبي مسلم وقال أصحابه أنه رفع إلي السماء وأنه سيعود لينتقم من أعداه من المجوس الزمازمة.

وهي نفس فكرة الرجعة أو المهد المنتظر أو هي نفس الفكرة التي قال بها زرادشت الذي قال أن رجلا إسمه «أشيزريكا» سيظهر في آخر الزمان ويزين العالم بالدين والعدل ويقضي علي الجور والظلم ويعيد السنن المغيرة وينقاد له الملوك وينصر الدين الحق(١).

وهى فكرة تتكرر عند غالبية المجوس وقد ظهرت آثار فكرة الرجعة عند الشعية الإثنى عشرية التى ترى أن الإمام غائب، وأنه سوف يعود حتما ليملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً وظلما - فإذا علمنا أن التشيع هو واحد من المذاهب الإسلامية فسوف ندرك إلى أى مدى إمتزج بالعقائد الفاسدة.

---

(١) راجع في ذلك الشهرستاني، الملل والنحل، هامش الفصل في الملل والاهواء والنحل، بيروت ١٩٧٥م حـ ٢ ص ص ٧٥، ٧٦.

(٥) المانويـــــة

هم أصحاب «ماني ابن قاتك» وهو حكيم ظهر في زمان بعد عيسي عليه السلام واخذ دينا بين المجوسية والنصرانية وكان يقول بنبوة المسيح وينكر نبوة موسي عليه السالم. ويذكر محمد بن هارون المعروف «أبي عيسي الوراق» وهو مجوسي الأصل أن (ماني) زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة. وانهما أزليان لم يزالا ولن يزالا وأنكروا وجود شئ من أصل قديم. وزعم ماني أنهما قوتين حساسين سمعين بصيرين وهما مع ذلك نفس وصورة وفعل وتدبير وهما متضادان متاحاذيان - تحاذي الشخص والظل.

١ - فأما الفعل فهو إما الخير والفلاح والنفع والنظام والاتفاق أو الشر والفساد والضر والاختلاف.

٢ - اما الخير فيتجه الي جهة فوق ويجنب الظلمة او جهة تحت ويجنب النور.

٣ - واما اجناسه خمسة منها ابدان اربعة والخامس روحها والابدان هي النار والنور والريح والماء وروحها النسيم او هي الحريق والظلمة والسموم والضباب وروحها الدخان.

٤ - ثم أن هناك الصفات الزكية النابعة من النور والشمس ذات الالوان المبهجة - وأما الصفات الشريرة فهي من الظلمة والأرض ذات الرائحة الكريهة والألوان المعتمة.

إلي آخر ما يقول به المانويه من اساطير وأوهام توحي بان اصحابها كانوا اسطوريين يخلطون بين الدين والمبادئ الفلسفية والافكار الغامضة. فنراهم يتحدثون عن مبادئ تشبه العناصر الاربعة في الفكر اليوناني فيقول صاحب هذا المذهب ان ملك عالم النور في سيره في إرضه وأن المزاج القديم هو إمتزاج الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة والمزاج المحدث الخير والشر ومع ذلك فقد اعترف «ماني» بالأنبياء ابتداءا من آدم ثم نوح ثم ابراهيم ثم المسيح عليهم جميعا السلام.[١]

(١) الملل والنحل، حـ ٢ ص ٨٥.

(٦) المزدكية

نسبة الي مؤسسيها (مزدك) الذي ظهر في أيام «قباد» والد «آنوشروان» ودعا قباد إلي مذهبه فاجابه إلا الن – أنورشروان – قتله لما اطلع علي كذبه وافترائه.

ويذكر الوراق ان المزدكية كالمانوية يقولون بالكونيين والأصليين – إلا ان مزدك كان يقول ان النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل علي الخبط والاتفاق يعني دون قصد. وكذلك فعل المزاج فانه يتم دون قصد ودون اختيار.

وكان مزدك ينهي الناس عن المباغضة والقتال. ولما كان اكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والاموال. فاحل النساء واباح الاموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ الأمر الذى تردد بعد ذلك عند (بابك الخدمىّ).

ويبدو انه اعتبر الجسد مصدر الظلمة فامر بقتل الانفس ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة. ثم ان مذهبه في الاصول ثلاثة هي «الماء والنار والارض» ويري ان معبوده قاعد علي كرسيه في العالم الاعلي[١]. علي هيئة قعود خسروا في العالم الأسفل وهو ليس باقل خسرانا من ماني وزرادشت ثم أنه أسطورى الخيال وصاحب إتجاه مغلق يمزج أفكاراً يونانيه جاءت عند طاليس وهيرفليطس وإبنادومكيس مثل فكرة العناصر الأربعة التى إختزلها إلى عناصر ثلاث وأستبعد منها الهواء. كذلك يمزج عناصر من الزرادشتية والزروافية ويميل فى إعتقاده إلى شيوعية النساء والأموال.

---

(١) الملل والنحل، حـ ٢ ، ص ٨٦.

(٧) الانسان فى فكر زرادشت
كما تصوره الفيلسوف الالمانى نيتشه

كيف يتفوق الانسان علي انسانيته في الزرادشتيه كما تصورها نيتشه؟

إن المهم الرئيسي (لزارا) أن يعرف كيف يتفوق الانسان علي انسانيته - ولكي يتفوق الانسان علي إنسانيته فإنه يجب أن يتحلي بالعديد من الصفات التي تبعث الآمال في نفس (زارا) وتحببهم له - ومن هذه الصفات - مايباعد بين الإنسان وإحتقار الآخرين يقول زارا «أنا لا احب من الانسان إلا كونه مرحلة وجنوحا - وفيكم أيضا أجد صفات عديدة تحببكم إليّ وتبعث الآمال في قلبي[(١)].

ولعل من هذه الصفات أيضا عدم الاستسلام لليأس، والتحلي بالجلد والصبر والتواضع - علي أنه يجب أن نعلم أنه ليس من المتفوقون علي انسانيتهم هؤلاء الداعون لهذه الصفات دون أن يتحلوا بها.

ثم أن زرادشت يشير إلي نوع من الرجال يسميهم أشباه الرجال - وهؤلاء هم الذين يتصفون بصفات النساء والخدم، وهم هؤلاء الذين يقودون الغوغاء وهم طامحون الي التسلط علي مقدرات الدنيا - هذا النوع من الناس في نظر زرادشت نوع مقيت ومكروه، ولكي يصل الإنسان إلي إنسانية فإن (زرا) يطلب إلي الآخرين أن يعتلوا فوق هؤلاء الناس لأنهم ألد أعداء الإنسان المتفوق، وهو إذ يدعو إلي الإعتلاء علي حقراء الناس فإنه ينبذ صغار الفضائل، وملذات الذات وهو يطلب السعادة للعدد الأكبر من الناس.

ويبدو أن «زرادشت» كان يلاحظ صعوبة العيش في الزمان الذي عاش فيه، فراح يدفع الانسان المتفوق أن لا يستسلم لليأس، وأن يستمتع بأفضل ما في الحياة، وبهذه الطريقة يمكن العيش في الزمان الصعب، وبهذه الطريقة يحظى هؤلاء بحب (زرادشت).

---

(١) نيتشه ، هكذا تكلم زرادشت، ص ٣١٤.

ومن صفات الإنسان الذى يتفوق على إنسانيته أن يتحلي بالشجاعة التي يتحلي بها الانسان عندما يكون منفردا بذاته لا تلك الشجاعة التي تتجلي أمام الآخرين.

إن الانسان الشجاع وحده هو الذي يعرف قوة القلب التي بها يمكنه التغلب علي الخوف، إن القلب القوي وحده هو الذي ينال الجنان بعد أن تغلب علي الهاوية وسبر أعماقها، والأرواح الجامدة لا نصيب لها من قوة القلب.

والشجاع هو ذلك الانسان الذي ينظر إلي القاع السحيق ويحدق فيه بعيني نسر طائر.

ومن الغريب أن زرادشت يفهم الشر بمعني مخالف لم يفهمه الناس، فهو يري أن الشر في هذا الزمان اصبح خير ما في الانسان من قوة لذلك فهو يدعو إلي ارتقاء الانسان في خيره وشره يقول «إن أعظم شر إنما هو أعظم خير للإنسان المتفوق».

ويرفض «زرادشت» الدعوة لاحتمال العذاب وحمل خطايا العالم لأن هذا يليق في فهمه للطبقة الحقيرة من البشر بينما يري أنه يسر بالخطيئة العظمي كأعظم وسيلة لتعزية النفس.[1].

ولا يدعي زرادشت انه جاء ليصلح ما شوه الراقون بأخطاهم، كما أنه يرفض ان تخفف من الام المتألمين والتائهين في الجبل أو ليساعدهم علي الخروج من مآزقهم، ويعلق علي ذلك بقوله (لا.. فليذهب الي الفناء الخيار في نوعكم، إذ يقتضي أن يتزايد ضيفكم مع كرور الأيام، لأنه بهذا الضيق وحده يتعالي الانسان الي الذري حتي يبلغ مرامي الصاعقة المحرقة القاتلة[2].

وفي الوقت الذي يرفض فيه زرادشت التوقف عند الأحداث الصغيرة أو الاهتمام

(١) هكذا تكلم زرادشت، ص ٣١٤، ٣١٥.
(٢) هكذا تكلم زرادشت، ص ٣١٦.

بشقاء وآلام الناس الحقيرة والزائلة من وجهة نظره، فإنه يهتم بالأحداث الدائمة البعيدة في مجال الأزمان وذلك لأنه يري ان المستوي من الآلالم الذي وصل اليه الناس اقل من المستوي الذي تحمله زرادشت نفسه.

ثم يضع زرادشت قاعدة يجب أن يحترمها الناس، فيقول «لا تطلبوا شيا يفوت قواكم إدراكه فمن طلب ما لا طاقة له بعد فقد كذب نفسه، لأنه إذ يطلب العظائم، وهو مزور ومقلد تنفر منه العظائم حتي يري ذاته زائغ البصر جمادا مطليا في فمه كلمات كبري وبين يديه قرقعه لا جدوي لها - كونوا علي حذر من طلاب العظائم أيها الرجال الراقون - فالقناعة خير الكنوز»(١).

وهكا تكون وجهة نظر زرادشت فيما يتعلق بالجهد الذي يبذله الانسان متساوية مع ما يجب أن يطمح إليه، كما أنه يجب علي الانسان المتفوق أن يكون قانعا لأن القناعة كنز لا يغني.

ويذهب زرادشت إلي تقسيم المجتمع الي طبقات لكنه عندما يتحدث عن عامة الناس يري أنهم يسودون علي الآخرين برغم أن فيهم من الصفات الحقيره ما يباعد بينهم وبين السمو أو الرقي فالعامة كاذبة ومتقلبة بالطبع تعتمد في فهمها علي الخطابة والنبرات والحركات ونكره استخدام العقل والبرهان.

يقول زرادشت في سخرية «أفليست العامة من يسود هذا الزمان؟ وهي مع ذلك لا تميز بين العظيم والحقير، والطريق السوي والطريق الملتوي، فالعامة كاذبة دون ان تشعر بجريمة كذبها»(٢).

ويطالب زرادشت الناس الراقون أن يتمتعوا بالحزم والشجاعة وحرية الضمير، فهذا الزمان زمان العامة في نظره كما قدمنا.

ويربط زرادشت بين الكذب أو الخيال العلمي والوصول إلي ماهية الحقيقة - فلا يمكن الظفر بالحقيقة إلا باعمال العقل الذي تنفر منه العامة.

(١) هكذا تكلم زرادشت، ص ٣١٧.
(٢) هكذا تكلم زرادشت، ص ٣١٧.

ويطالب زرادشت الناس بالاعتماد علي أنفسهم إذا ما كانوا يطلبون العلي فيقول «إذا أردتم بلوغ الذري فتسلقوها بأرجلكم، ولا تطلبوا ان تحملوا إليها حملا علي ظهور الغير ورؤوسهم. قل لمن يمتطي جوادا ويسير خببا نحو هدفه: لا تنسي أن رجلك العرجاء راكبة معك ولسوف تترجل في آخر الشوط فتهوي من ذروتك إلي الحضيض»(١).

وكأنه يذكر الناس بأنهم مهما حاولوا الاعتماد علي الآخرين، ومهما ركبوا الرءوس واستغلوا غيرهم فإنهم يحملون معهم طاقة ضعفهم، وأنهم لا بد في النهاية من إعتمادهم علي أنفسهم.

ويدرك زرادشت أن بعض الناس يستخدمون كثيرمن المبررات الخاصة في أعمالهم، فيري أن العمل من أجل الآخرين من المبررات المرفوضة، والقول بأنه يمكن الابداع من أجل الآخرين أو بالنيابة عنهم قول باطل.

يقول: «اعرضوا عن كلمة من أجل وتناسوها أيها المبدعون، لأن فضيلتكم تتوقف علي ألا تفعلوا شيئا من أجل أحد أو بسبب أحد أو لأية علة أصموا آذانكم دون هذه الأدوات الكاذبة»(٢).

ومن الغريب أن ينظر زرادشت إلي فعل الولادة علي أنه فعل نجس مصحوب بالألم، وأن عملية الولادة عملية ميكانيكية لا لذة فيها، وهي نوع من الرجس الذي يصيب أصحابه.

يقول «اعلموا ايها الراقون المبدعون أن كل من سيلد مريض، وأن كل ولد قد تنجس.

سلوا النساء ليتعلموا أن لا لذة في التوليد، فالدجاج تبيض صائحة، والشاعر

(١) هكذا تكلم زرادشت، ص ٣١٨.
(٢) هكذا تكلم زرادشت، ص ٣١٨.

يبدع متألما، لقد حل بكم نجس الوالدات، ايها المبدعون - كل مولود جديد يأتي برجس إلي العالم، فعل كل مبدع أن يظهر نفسه[١].

ويواصل زرادشت رجم الناس فيري أنه لا يمكن القول بامكانية ان يهرب الابن من دنس أبيه، وهو يحذر من محاولة البعض أسباغ العظمة والقداسة علي أفعال الاباء ورزائلهم، فمن العبث أن يطالب بالعفه من تمرغ آباؤهم بالنساء وكرعوا الخمر ولحم الخنزير - وهو ا يحرم النساء والخمر ولحم الخنزير ويجعلها من الرزائل يقول مشككا في امكانية توبة المتمرغ في هذه الخطايا - إنكم تطلبون كثيرا إذا إقتضيتم العفاف من مثل هذا الرجل فحددتم له امرأة أو اثنتين أو ثلاثا، أما أنا فلا أصدق.. حتي لو أنشأ ديرا وكتب علي بابه هذه «طريق القداسه» فهذا الدير ليس الا ملجأ ومقر لمحاولات الجنون، فما ينمو في العزلة من الانسان إلا ما استصحبه إليها من حوافز وهنالك المجال لنمو الحيوان الكامل[٢].

وهو هنا يرفض منهج العزلة الذي تدعو إليه بعض الاتجاهات الروحية ويختلف مع منهج الصوفية والأديان السماوية التي تري في العزلة كثيرا من الفضائل - فهو ما زال يردد - من الخير أن نردع الكثيرين عن العزلة والانفراد[٣].

ان الرجال الذين نسميهم «راقون» يتعاملون مع الآخرين كما يتعامل الوحش مع فريسته ولا يخجلهم هذا، بل لعلمهم لم يشعروا يوما بالخجل مما يفعلون - ومع ذلك فهم لم يتعلموا بعد أصول اللعبة بالقدر الكافي الذي يجعلهم بعيدا عن مائدة السخرية التي يجلس عليها كل الناس - وهل نحن في الحياة إلا جلاس مائدة كبري للسخرية والمقامرة.

ويحمل زرادشت حملة كبري علي من نطلق عليهم لقب «الرجال الراقون» فيصفهم بالحقد والحسد، ويخاطبهم قائلا - ولأنكم فشلتم تريدون أن يفشل الانسان -

(١) هكذا تكلم زرادشت، ص ٣١٩.
(٢) المرجع السابق، ص ٣١٩.
(٣) نفس المرجع السابق، ص ٣٢٠.

أما أنتم أيها الرجال الراقون نماذج فاشلة للمثل الأعلي» ثم نراه يدعوهم للسخرية من أنفسهم إذ يراهم نماذج فاشلة أو نصف فاشلة للمثل الأعلي.

ويمضي نيتشه واصفا الإنسان المتفوق علي إنسانيته علي طريقة «زرادشت» قائلا: «ان أعظم ما أرتكب في العالم من أخطاء هو قول القائل «ويل للضاحكين في هذه الدنيا» فإن من جاء بها الانذار قد قصر في التفتيش، فما وجد علي الأرض شيئا يستحق الضحك في حين أن الأطفال يجدون ما يصحبهم - ويصيف أفليس من فساد الذوق ان يندفع الإنسان الي اللعن إذا هو لم يحب؟ ها ما فعله لك النذير لأنه ابن العامة المتعصب.. ولو أنه عرف الحب لما كان احتدم غضبا لانه لم يحب، فكل محبه تتناهي لا تطلب محبة بل تطلب أكثر من المحبة.

وينصح (زرادشت أو نيتشه) - ابتعدوا عن جميع هؤلاء المتعصبين فهم نوع من الانسانية مريض فقير - هم من العامة التي تزوغ نظراتها من الحياة ونصيب الارض بسم أعينها»[1]. وهكذا يمضى زرادشتا فى البحث عن إنسان تفوق على إنسانيته - وهو يدرك أن وجود مثل هذا الإنسان الراقى أو (السوبر مان) هو أمر أشبه بالمستحيل- لكنه يحاول أن يرسم طريقا لوجود هذا الإنسان. ويبدو أن البحث عن مثل هذا الإنسان قد شغل العديد من المفكرين المسلمين إبتداء من (إخوان الصفا وخلان الوفا) وحتى محيى الدين بن عربى، وصدر الدين القونوى، وعبد الكريم الجيلى وغيرهم.

---

(١) هكذا تكلم زرادشت، ص ٣٢١.

المراجع الرئيسية

١ - إمام عبد الفتاح (الدكتور)، المعتقدات الدينية لدى الشعور، جفرى بارندر، عام المعرفة العدد ١٧٣، الكويت ، ١٩٩٣.

٢ - چون كولر، الفكر الشرقى القديم، تراجمة كامل يوسف حسين، عالم المعرفة، العدد ١٩٩، الكويت، ١٩٩٥م.

٣ - حسين قاسم العزيرى، البابكية الخرمية، مكتبة النهضة، بيروت، ١٩٦٢م.

٤ - الشهرستانى، الملل والنحل، طبعة بيروت، ١٩٧٥.

٥ - نيتشه ، هكذا تكلم زرادشت.

6 - Christams Humbhery, Exploring Bucldhism.

7 - Max Muller, The Upanisads, Prt II, New York.

الفهـــرس

الموضوع	رقم الصفحة

رقم الإيداع

٢٠٠٤ / ٤٧٠٩